الثقافة

AL-THAQAFA

الإدارة : ٩ شارع الكرداسي بعابدين — القاهرة — تليفون رقم : ٤٢٩٩٢ / ٥٦٧٦٩

العدد ٣٦٢ — الثلاثاء ٨ من المحرم سنة ١٣٦٣ — ٤ من يناير سنة ١٩٤٤ — السنة السادسة

فهرس العـــــدد

كلمة مخلصة
في مشروع المدارس الريفية

أتيحت لنا فرصة الاطلاع على الخطة التي وضعها الفنيون من رجال وزارة المعارف العمومية للمدارس الريفية المزمع إنشاؤها ، كما أتيحت لنا فرصة النظر في بعض المناهج التي رسمت لإنفاذ تلك الخطة . وقد كان ذلك جزءاً من خطة الإصلاح الذي رسمه معالي أحمد نجيب الهلالي باشا في تقريره .

ونرى من واجبنا أن نتجه بهذه الكلمة إلى معالي الوزير مدفوعين برغبة مخلصة في بلوغ تلك الأغراض التي يحرص عليها معاليه ، كما يحرص عليها كل مخلص لشعب هذه البلاد .

الخطة المرسومة ، والمناهج التي فصلت الدراسة على مقتضاها كلها حليمة ، ولا يتردد خبير في أمور التعليم في أنها قد درست دراسة فيها كل ما يتطلبه الرقي من تمحيص ونظر دقيق . ولا شك أن الخطة في مجموعها يمكن أن تعتبر مجهودا عمليا قويا في سبيل إصلاح ما نشكو منه في التعليم الإلزامي . فهناك مبادئ عدة قد اعترفت بها الخطة الجديدة ، وهذا الاعتراف وحده يبعث إلى الاطمئنان على سلامة الاتجاه الجديد .

التعليم في الخطة الجديدة يشمل اليوم كله . والخطة الموضوعة تحتوي على الدراسات النظرية الكافية من لغة ودين وحساب ورسم وصحة ورياضة بدنية .

وتشمل الخطة كذلك الناحية العملية . ففي المدرسة الريفية الجديدة طرف من دراسة الفلاحة والنبات والحيوان والصناعات المتعلقة بالزراعة في الحقل والدار ، والصناعات المتعلقة بغلات الحقل والماشية ؛ وذلك كله يختلف باختلاف سن التلاميذ واختلاف بيئة المدرسة .

وقد بينت الخطة فوق هذا أن تتجه دروس الدين والحساب والأطوال والساعات والتعاون ودروس الصحة إلى الوجهة العملية .

هذا كله يدعو إلى أعظم الارتياح ، فإن في هذه الخطة تحقيقاً لما نرجوه من توسعة الأفق التعليمي ، وجعل الدراسة حية يستطيع التلاميذ أن يجعلوها جزءاً من تفكيرهم العلمي .

وتتضمن الخطة فوق هذا أموراً لها أعظم الخطر في الدراسة ؛ فهناك ذكر لمكتبة تنشأ في المدرسة الريفية ، والأمل عظيم في أن تكون هذه المكتبة حقيقة يستطيع المدرس والتلميذ معاً أن يستفيدا مما فيها . كما أن بالخطة دلالة على أن عدد حصص المدرس سيكون بحيث تترك له فسحة للتنفس والاطلاع ، فلا يبقى الحال كما هو عليه الآن ، إذ المدرس يعمل اليوم كله بلا انقطاع لا يجد فرصة للراحة ولا للاطلاع .

كل هذه حسنات نرى من الواجب التنوية بها والإشادة بفضل من رسموها .

ولنا بعد ذلك كلمة خالصة رأينا أن نتجه [illegible] إلى أولى الأمر في وزارة المعارف فيما [illegible] نحو التعليم .

إذا نحن نظرنا في تفاصيل الخطة وجدنا مواضع كثيرة نقف عندها في شك وتردد . فهناك عدد الحصص المقدرة لكل موضوع ، وهناك تفاصيل الموضوعات المختلفة في مقرراتها وفي إدماج بعضها في بعض ، وهناك الترابط بين المواد المختلفة فيما بينها والترابط بين جهود المشروعات العملية وجهود التعليم في الفصول ؛ ثم هناك موضوعات أهمل ذكرها كالتاريخ والجغرافيا ، وأغلب الظن أنها أدمجت في المعلومات العامة التي قدر لها في الخطة أن تضم إلى اللغة العربية .

وهناك ما هو أهم من ذلك . كيف يستفاد بالمشروعات العملية في توسيع الثقافة العامة ؟ فالمشروعات العملية ليست مقصودة بذاتها لتدريب العمل وحده ، بل هي على الأكثر وسيلة من وسائل توسيع أفق المدارك . ولكن المنهج الذي وضع لها لا يحقق مثل هذا القصد .

فنحن بإزاء ذلك لا نرى بداً من أن نطلب إلى أولى الأمر أن يجعلوا أول خطوة في سبيل إنفاذ المشروع الجديد تلك الخطوة الطبيعية التي لا غنى عنها ، خطوة وضع المشروع موضع التجربة في نطاق ضيق حتى يمكن بعد حين — سنتين أو ثلاث سنوات — أن نتبين المواضع المحتاجة إلى التعديل ، فيقوم الفنيون بتتبعها وإصلاحها . هذه هي الوسيلة التي تجعل المشروع حياً مرناً قابلاً للإصلاح والتعديل حتى يطمأن أخيراً إلى صلاحه ويكون تعميمه ممكناً بعد ذلك .

وأهم اعتبار يحملنا على هذا الطلب هو أن التعليم في المدارس الجديدة أساسه فهم الروح المقصودة من التعليم ، والتنسيق بين الجهود العملية والجهود الدراسية داخل الفصول ؛ وهذا يتطلب تشرب الروح ، وفهم المقصود ، وإدخال المعلمين إلى لب الفكرة ، وتوجيههم إلى الطريق المؤدية إلى الغاية المقصودة . وهذا لا يكون إلا مع البدء في نطاق ضيق ، يكون فيه المشروع موضع الدراسة المستمرة والتحوير والتعديل مع المراقبة لسير الأعمال من قريب . [illegible] الأمر ألا يبدأوا بالتجربة حتى يتحققوا من أن الآلة المدرسية قد تم التنسيق بين أجزائها ، وأن الأيدي التي تحركها قد مرنت على إدارتها . ونحذر منذ الآن مما آلت إليه الإصلاحات السابقة في التعليم الأولى عندما بدئ فيه على نطاق واسع قبل أن يتحقق أولو الأمر من صلاح النظام المقترح — لقد كانت تلك المشروعات القديمة على الورق صالحة لا يظهر فيها عيب ، ولكن الحقيقة لم تلبث بعد مضي الزمن أن ظهرت ، فعلم الجميع أن التعليم الإلزامي لا يؤدي إلى المقصود منه ، وأنه لابد فيه من هدم الكثير قبل أن يؤخذ في البناء .

وليس من غضاضة في البدء بوضع المشروع الجديد موضع التجربة لمدة معينة ، بل إن هذا هو السبيل الطبيعي . وأملنا عظيم في حرص معالي الوزير على تحقيق هذا الإصلاح الجليل ، أن يضع الأسس التي تكفل له أن يكون إصلاحاً حقيقياً دائم الأثر .

(ا . . .)

زعماء الإصلاح الإسلامي فى القرن التاسع عشر :

٣ – مدحت باشا

هذا مدحت باشا فى مزرعته — يفكر ، كل محاولاته فى الإصلاح ضاعت سدى لصلابة السلطان عبد العزيز الذى يأبى أن يسمع كلمة « الشورى ، والدستور ، والعدل ، والحرية ، والأمة » ؛ وكل من نطق بهذه الكلمات كان عرضة للنفى والتشريد والقتل والعزل كما حدث له .

« إن السبب الوحيد لتذمر المسيحيين فى الدولة هو فقدانهم الحرية ، فمتى منحوها عطفوا على الدولة وشعروا أنهم جزء منها .

وسبب ضعف المسلمين هو فقدان الحرية ، فمتى شعروا بحريتهم أقدموا على عملهم ونشطوا ، وكسبوا ، وتعلموا ، واستخدموا ذكاءهم ومواهبهم لإسعاد أنفسهم وأسرهم وهيئتهم الاجتماعية .

وفقدان الجميع الحرية علاوة على أنه أفقدهم ثروتهم وخلقهم بأخلاق العبيد : من ذلة وضعة ، وعدم الالتفات إلا إلى المأكل والملبس ينالونه من أخس الطرق . وليس الذى وقعنا فيه من طبيعة الإسلام فى شىء ، فالإسلام يسوّى بين الغنى والفقير فى الحقوق والواجبات ، وبين الوزير وراعى الغنم ، ويجعل أمرهم بينهم شورى ؛ وهذا السلطان يكره كلمة الشورى كما يكره الموت . والإسلام جعل من أهم قواعده الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وهذا السلطان لا يسمح لأحد أن يأمر بمعروف ولا أن ينهى عن منكر .

إن الشورى الإسلامية نظمت فى العصر الحديث بما يسميه الأوروبيون البرلمان ؛ والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشكّل فى المدنية الحديثة بحرية الصحف فى النقد ، وحرية الأفراد والجماعات فى التأليف وإبداء الآراء فى صراحة ، يستحسنون ما يرون ، ويستنكرون ما يرون ، ويخطئون كما يشاءون . فلا أحد معصوم ، ولا الحكومة معصومة ، ولا الوالى معصوم ؛ وإنما الذى يقوّمهم ويخيفهم ويلزمهم الجادة يقظة الرأى العام وحريته فى النقد ، وهذا هو ما سمى فى القرآن : بالتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر . كل هذا واضح وجلى ولا بد منه ، ولكن إرادة السلطان عبد العزيز هى الصخرة التى تتكسر عندها كل هذه الآراء .

أرض الدولة العثمانية أخصب أرض فى العالم ، وهى مع ذلك أفقر أرض لهجرة كثير من أهلها بالظلم ، وإثقال كاهل من بقى بالضرائب ، ولا شركات ، ولا مصانع ؛ فالقطن كثير فى البلاد ، ومع هذا فالأقمشة القطنية تجلب من أوروبا ، حتى الطرابيش التى نضعها على رءوسنا ، وعلب الكبريت التى نشعل به نيراننا نجلبه من الخارج . وكل المواد الأساسية متوفرة عندنا ؛ ولكن لا عدل ، ولا أمن على المال ، فلا شركات ولا صناعات . ولا يتأتى العدل إلا بالقوانين العادلة ، والمحاكم العادلة ، وهذه لا تكون إلا [illegible] أى الدستور . كل من جاهر بالإصلاح أبعد ؛ ففؤاد باشا مات محتقراً مهيناً ، وعالى باشا دُسّت له الدسائس حتى عزل من مناصبه ، وهما ما هما فى الكفاية والاستقامة ؛ وإنما يقرب أمثال محمود نديم الشره الجاهل الذى يقدّم مال الدولة للسلطان ، ثم ينتهب لنفسه ما نالته يده .

رحم الله فؤاد باشا وعالى باشا فقد رأيا أن السلطان لا يسمع لقولهما فى الإصلاح ، ففكرا فى حيلة لطيفة أن يشوقا السلطان لزيارة أوروبا ، وينتهزا فرصة زيارته للعواصم الأوروبية فيبيّنا له ما وصلت إليه من النظام والتقدم ، ويشعراه من طرف خفى بأن سبب هذا كله حسن الإدارة وصلاحية الحكم ، لعله إذا عاد حفزت نفسه لحسن التقليد فأصغى إلى المصلحين وشجعهم على الإصلاح ، وسار فى أموره غير سيرته ، والتفت إلى رعيته ؛ ولكن خاب فألهما فقد عاد أشد إسرافاً ، وأكثر تبذيراً فى ملذاته . عاد ووعد ثم أخلف ما وعد ؛ وكل ما فعل أن حقد عليهما لأنهما أشارا

عليه بانتخاب مجلس في كل ولاية يجدد كل سنة لمشاركة الوالي في أعماله ، وبذل النصح له ، فرأى أنها فكرة شيطانية يراد منها التدرج إلى البرلمان أو الدستور ، ذلك الشبح المخيف . وكل ما جنته البلاد من هذه الرحلة إنشاؤه مصانع ومتاجر باسم خزانته الخاصة لا باسم الشعب . ثم هذا السلطان يستدين ويستدين ؛ فقد كانت ديون الدولة في آخر أيام السلطان عبد المجيد ٢٥ مليون ليرة فبلغت بعد ١٢ سنة بفضل عبد العزيز ٣٥٠ مليون ليرة ، فما مصير الدولة إذا استمر الحال على هذا المنوال ؟! يظهر أن لا أمل في الإصلاح مع وجود « عبد العزيز » ، بل لا أمل حتى ولو أصدر لوائح الإصلاح ، وأوامر إنشاء القوانين والمحاكم والنظم المدارس ، فقد جربناه فرأيناه يطأطئ للعاصفة حتى تمر ، فإذا مرت عاد سيرته الأولى ، وحل ما عقد ونقض ما أبرم .

لم يبق إلا أمر واحد ، وهو تهيئة النفوس لعزله ، ووضع الخطط المحكمة لإنزاله عن عرشه ووضع الأمر ، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا بالجيش ، وفي هذا خطورته ، ولكن قد تمكنت في جامع الفاتح أن الضرورات تبيح المحظورات .

فإذا تمت الأمور وعزل عبد العزيز ، وأقيم مكانه سلطان جديد أقامته الأمة بقوتها ، وأعلن يوم توليته الدستور ، شعر بأن الأمر بيد الأمة فأطاعها ، وأنه مدين لعرشه بالدستور فاحترمه وسارت الأمور سيراً حسناً : دستور نافذ ، وسلطان مطيع ؛ وبدأنا حياة جديدة كلها خير على الأمة ، وسرنا في الطريق الذي سارت فيه الأمم الحية تأخذ محاسنهم ، وتتجنب أخطاءهم ، فإذا الحياة سعيدة ، والعدل شامل ، والدستور حام . فلنسر على بركة الله .

هكذا فكر مدحت ، وهو يشرف على الإصلاح في مزرعته ، والفؤوس تضرب في الأرض ، والنواعير تبكي بدموع غزار !!.

سارت الأمور أول الأمر كما فكر تماماً . فها هو يدبر الحركة ويتصل بالشبان والشيوخ الذين سئموا هذه الحال ويتفق معه في الرأي حسين عوني باشا (سر عسكر الدولة) ، وهما يتصلان بناظر البحرية وشيخ الإسلام ، ويتفق الجميع على خلع عبد العزيز في يوم معين . حتى إذا جاء اليوم أتى الأسطول فرسا أمام سراي طولمة بغجة ، واجتمعت العساكر فأحاطت بالقصر ، ودخل على السلطان من أبلغه خبر العزل ، فاستخف بهذا الخبر فأشهدوه العساكر والأساطيل والجموع المحتشدة فاستسلم ، وأنزلوه من السراي ، ووضعوه في قصر والدته ومعه ثلثمائة أنثى بين زوجات وجوار مملوكات ووصيفات وخادمات ؛ واختصروا حاشيته فاستغنوا عن ١٢٠٠ سائس و ١٠٠٠ طبلكار (حامل طبليات الطعام) و ٦٠٠ قواريي وأمثالهم من الخدم ، وقطعت مرتباتهم للضائقة المالية التي حلت بالدولة . وبعد بضعة أيام وجد السلطان مقتولا ، فقيل إنه قتل ، ويرى الأكثرون ، ويقرر الأطباء المديدون ويؤكد ذلك مدحت ، أن السلطان أخذته العزة فقطع شرياناً من يده فمات من ذلك .

ومهما كان فقد بويع السلطان مراد ، فلم تمض عليه أيام حتى ظهر جنونه واختلط عقله ، فولي السلطان عبد الحميد بعد ثلاثة أشهر ، وحمل عبء هذه الأحداث العظيمة والتركة الشنيعة ؛ وهو في أثناء مرض السلطان مراد يجتمع بأعوانه ويدرس قوانين أوروبا ونظمها ويختار أنسبها .

وكان في ذلك يضع إحدى عينيه على النظم الأوروبية والأخرى على حالة الدولة ، فما كل ما يصلح لأوروبا يصلح لها ، وفي ذلك يقول : « إن أخذ القانون من أوروبا ووضعه لنا لأنه أفادهم يشبه أخذ آلة من الآلات عندهم للنسيج وجلبها إلى بلادنا وليس عندنا فرد يقدر على إدارتها والاستفادة من مزيتها .

« وفضلا من ذلك فكثير من القوانين لا يوافق كل الولايات في دولتنا ؛ فالقانون الذي يوافق ولايات حلب وسوريا وبغداد لا يوافق ولايات بروسه وأزمير وأدرنة ؛ وقد يكون القانون في بعض الولايات عدلا ، وفي بعضها

طلما ، فيجب النظر إلى هذه المسألة عند تغيير القوانين .

« وإن مسألة استقلال المحاكم ، وأصول جباية الأموال ، وقوانين الإدارة وغيرها من القوانين والنظامات ، قد استعملها الإفرنج فأفادتهم بسبب رقي الأهالي وتمدينهم ؛ فقانون الأراضي مثلا يقضي علينا بتعيين المهندسين ، ومعرفة مقادير أراضي بلادنا وأصحابها ووضع الضرائب اللازمة ، وهذا لا يتم بواسطة كاتب واحد يتقاضى ١٥٠ قرشا في الشهر ، فالإفرنج يعينون لكل قرية لجانا ومهندسين يمسحون الأراضي ويقدرون الضرائب ، ونحن لا نعرف اليوم عدد سكان بلادنا ولا مقدار أراضينا .

« فيجب تدريب الرجال وإلقاء أزمة الأمور إليهم بالتدريج ... كما يجب تخصيص الأعمال لكل طائفة ؛ ففي أوروبا المالية اختصاصها ، والحربية اختصاصها ، وكذلك الداخلية والعدل ، أما عندنا فالأمور كلها منوطة بالوالي » .

وهكذا عكف هو وأعوانه على هذا الإصلاح الذي يتلخص في اختيار خير النظم الأوروبية [illegible] الدولة الاجتماعية ، والأخذ بيدها تدريجا كلما خطت خطوة انتقل بها إلى ما بعدها .

ووضع القانون الأساسي للدولة ورتب نظام مجلس المبعوثان فما ولي السلطان عبد الحميد حتى كان ذلك كله معدا ، وتولى مدحت باشا الصدارة . وبعد أربعة أيام من صدارته بادر السلطان إلى إقرار القوانين ، وأعلن الدستور المؤسس على الشورى ، والمؤسس على اشتراك جميع الرعايا في شؤون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ؛ ونُظِّم للدولة مجلسان : مجلس ينتخب من الأهالي ويسمى مجلس المبعوثان ، ومجلس تعين الدولة أعضاءه ، ويسمى مجلس الأعيان . وتلي هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالأستانة في محفل عام (١٤ من ذي الحجة سنة ١٢٩٣ هـ) ، وأمر بأن يكون العمل بمقتضاه في جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية ، واستبشر الناس خيرا ، وأقيمت الأفراح والليالي الملاح . وكان يتضمن هذا الدستور حقوق الدولة وواجبات الوزراء ورجال الإدارة ، واختصاص كل مجلس من المجلسين ، وتنظيم المحاكم والديوان المالي والمالية الخ ، وكل الدلائل تبشر بالخير . هذا مدحت أبو الدستور رئيس الوزارة ، وهذا السلطان عبد الحميد أتى بإرادة الأمة وهو مدين لها بجلوسه على العرش ، مدحت يؤيده ، وهو يؤيد مدحت ، والكل يخضع للنظام والحكم الديمقراطي ، فماذا ينتظر بعد ذلك إلا الخير ! !

هكذا قال الناس ، وهكذا قال مدحت .

لقد أخطأ إذ بالغ في التفاؤل أكثر مما يلزم ، وكذلك أكثر عظماء الرجال تسحرهم الفكرة ، ويلعب بلبهم المبدأ فلا يرون منه إلا النواحي البراقة ، كالفنان يرى في شجرة الورد أزهارها ولا يرى أشواكها . استخف بقوة الرجعيين ، ولم يعرف لطهارته أساليب دسائسهم ، واقتنع بالبسمة على وجوههم ، ولم ينفذ منها إلى الغل في أعماق نفوسهم ، ولم يقدر قوة العدو العنيد الذي كان يغتني من الظلم ويفتقر بالعدل ؛ والذي كان يثرى من كلمة ملق أو تسويد سطر وشاية فأصبح خائفا من العدل أن يجرده من ثرائه وينزله من جاهه ؛ والذين يشترون أنفسهم بالحظ لأنهم فقدوا أن ينالوا شيئا ببذل الجهد .

وشيء آخر هام فاته ، وهو أن من عاش طويلا في ظل العبودية لا يقدر سريعا مزايا الحرية ، وأن الأمم السابقة إلى النظم الديمقراطية لاقت الأهوال قبل أن تعتدل ، وتأرجحت كثيرا قبل أن تتوسط ، والذي نفعها أنها لم يكن يطمع فيها طامع ، فقضت مدة التجربة وهي آمنة مطمئنة ؛ أما هذه الدولة فلا ينتظر مدة تجربتها أحد ، فإذا بدأت تجرب قالوا لا تصلح ، وإذا أخطأت لم يقولوا إنه عرض مفارق بل قالوا طبع ملازم .

فهذا مجلس المبعوثان يجتمع فيشتط بعض أعضائه في القول من غير حساب حتى يثير بأقواله مشاكل ومخاوف ما كان أغناهم عنها ، وكل ولاية تظن أن مبعوثيها نائب

عنها لا غير وليس نائبا عن الأمة ، وأن عليهم أن ينفذوا جميع رغائبها ولو كانت غير عادلة ، ولو كانت لا تتفق ومصلحة الدولة من حيث هي كل ؛ ويحمل البريد إلى كل مبعوث ما يئوه ، يفتحه بله قراءته : هذا يطلب عزل خصمه وتوليته بدله ، وهذا يلتمس رتبة ونيشانا ، وهذا راغب في وظيفة ، وهذا راغب في ترقية ، حتى بلغ الحال أن مكاريا سرقت دابته فبعث إلى مبعوث ولايته أن يأمر بإعادتها إليه .

وربما كان هذا طبيعيا والنظام جديد ، والجهل عتيد ، ولابد من فترة تمر يفهم فيها أن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة ، وأن مبعوث الولاية نائب الأمة أولا وولايته ثانيا ، وأنه كلما خفف ناخبوه مطالبهم زادوه مقدرة على نفع أمتهم ؛ ولكن أنى لهم عن يصبر على سخافتهم ، ويفسح الصدر لمرامهم ، والأعداء كثيرون في الداخل والخارج وهم لهم بالمرصاد ؟!

وزاد الأمر سوءا أن الروسيا لم ترضها هذا الحال ، فاحتجت على ذلك وتأخرت عن الاعتراف بالنظام الجديد ، ولعبت بالبلقان تحركه ، وثارت الثورات في أنحائه ، فثورة في الصرب ، وثورة في الجبل الأسود والبوسنة والهرسك ، والحروب قائمة ، وانتصارات الدولة لا تفيدها عند الحلول ، وانتصارات عدوها يفيده . والدولة فقيرة في المال بما أسرف عبد العزيز ، وفقيرة في رؤساء القواد فقد قتل حسين عوني باشا وغيره معه بيد أثيمة ، وروسيا تريد فصل البلغار عن الدولة ، ولكل دولة مطامع ؛ ومدحت يتحمل كل هذه الأعباء الداخلية والخارجية في صبر عجيب ، فنهاره في تنظيم الشئون الداخلية ، وليله في الشاكل الخارجية ، وفي ذلك يقول . « تحملت من المتاعب من يوم جلوس السلطان مراد ما يفوق القدرة البشرية ، وكنت أقول ليست هذه الحياة لي بل الأمة ، وقد وقع الوطن في مصائب داخلية وخارجية ؛ فواجب أن أسعى في تخليصه من مخالبها » .

وفيما هو كذلك سلم إليه أحد رجال المابين خطابا ففتحه وقرأه ، فإذا فيه عزله وإبعاده إلى خارج الدولة فورا من غير أن يعرج على أهله ، وذلك بعد شهرين من صدارته . فألح مدحت على رجل المابين أن يراجع السلطان في بيان السبب ؛ فعاد وقال إن السلطان يقول إن المادة ١١٣ من الدستور تخول السلطان حق إبعاد الذين ترى نظارة الضابطة سوء حالهم ، وقد قدم ناظر الضابطة إلى جلالة السلطان تقريرين وقع عليهما وهما هذان . ففتح مدحت أحدهما فإذا فيه : « أن جاسوسا سمع ضابطا يقول لصاحبه في إحدى القهاوي إن مدحت سيكون رئيس جمهورية » فاكتفى مدحت بهذا ولم يفتح الثاني ، وقال : « إن بلادي التعيسة كمريض حضره نطس الأطباء ، وعالجوه حتى كاد يبل من مرضه ، فأدس عدو له شقاء سما قضى على حياته » وصدع بالأمر وركب الباخرة « عز الدين » التي من غير أن يرى أهله .

وخاف السلطان من الرأي العام ، فطلعت الجرائد وفي بعضها مقالات « ترمي مدحت بأفظع التهم ، هذه تقول إنه ضبطت أوراق تدل على خيانته ، وهذه تقول إنه أراد أن يجعلها جمهورية ، وهذه تقول إنه قد أوقع الدولة في مشاكل خطيرة ؛ وأدى الشعر رسالته ، وأنشئت فيه قصائد هجاء بليغة ، وأظهر كثير من المعممين ابتهاجهم وقالوا إنه يريد فصل السلطة الدنيوية عن السلطة الدينية — والذي يقارن بين الجرائد منذ أربعة أيام وبينها اليوم يعجب لهذا الانقلاب الغريب من مديح رنان إلى هجاء رنان . وسكت الناس بين الدهشة والعجب ، والشك واليقين ؛ وشرد رجال مدحت ممن أخلصوا له ولبادئه . ووسط هذه البلبلة الفكرية صدر الأمر الشاهاني بتعطيل الدستور تعطيلا مؤقتا ، ولكن ألا تعرف — أيها القارئ الكريم — مدة هذا التعطيل المؤقت ؟ ثلاثون سنة !!

لم يكن الرأي العام حذرا فخدر ، ولا عاقلا فخدع ، ولا قويا فامتهن .

أحمد أمين

مطالعات أشتات :

بائع الصحف الأصم

الذى أعطانى وأعطاك النور

للدكتور أحمد زكى بك

قام القطار من بلدة پُرْت هيرون Port Heron ، وسار يقطع الطريق منها إلى بلدة دِتْرُوا Detroit . وكلتا البلدتين بالولايات المتحدة عند الحدود الكندية ، حتى إذا بلغ القطار منعطفا لم يُحسن الرجال إصلاحه ، ارتجّ ، فارتجت بارتجاجه عربةٌ فى القطار . ولم يمض على ارتجاج هذه العربة زمنٌ طويل حتى اندلع اللهب فيهـا ، فجرى إليها الحارس ومن معه ، وبعد جهد أطفأوا فيها النيران . ثم وقعت عين الحارس بين الجمع على غلام فى الخامسة عشرة من عمره ، فصكّ أذنه صكّة أصمّته [illegible] حتى عامه الرابع والثمانين .

كان هذا الغلام صاحب عود الفسفور الذى انكفأت زجاجته بارتجاج العربة ، فلم يكد هذا العود أن يتحرّر من زجاجتـه ومن مائها ، فيتعرض للهواء ، حتى دَخِن ، فاحترّ ، فاشتعل ، فالتهب وألهب مما حوله كل ما يصلح طعاما للنار .

وكيف تأتّى لهذا الصبى أن يكون صاحب هذا العود ؟

تأتّى له ذلك بأنه كان يبيع الجرائد والمجلات على القطارات بين هاتين البلدتين . وكان له ذلك بتصريح رسمى ، طلبه ، وأُعطِيَ إياه ، وهو فى الثانية عشرة من عمره . وإذنْ فقد أعطوه مكانا فى القطار ، فى عربة الحارس يضع فيه أحمـاله من تلك الصُّحُف والـكتب . فلما استقر فى صناعته هذه ، شاقه ما كان ضاق به بيت والده من قبل وضاق به حينه : معملٌ يجمع به الزجاجات ، ويضع فيه الكيماويات ، ويرسم على بطاقاتها الجماجم والعظام المتصـالبة ، ويرسمها بالحق وبالباطل ، ترهيبا وإنذارا حتى لا تمسها يدٌ وخيلة عابثة . شاقه هذا المعمل المنزلىُّ القديم ، فأراد أن يؤلفه من جديد فى ركن من أركان تلك العربة ، حيث يضع ما يبيع من كتب ، وما يبيع من صحف . حتى إذا وقع هذا الحريق ، كان وقوعه سببا فى اختفاء هذا المعمل المتنقـل وانتهائه ، وانتهت به غبطةٌ كان يجدها هذا اليافع حتى فى محض تقليبه ما فيه وترتيبه .

كان هذا الغلام بائع صحف . ولـكنّ بيع الصحف لا يستغرق كل وقته . ففى القطار فراغ . وفيما بين القُطُر ، غاديها ورائحها ، فراغ كذلك . وفى مدينة دِتْرُوا ، حيث ينتهى مطافه رسميا ، مكتبة عامة بالكتب عامرة . وإذنْ راح هذا الصبى إلى هذه الكتب يقرأ فيها فى نهم واستيعاب . وخطر فى باله أنه إنمـا يبيع الصحف التى يكتبها غيره ، [illegible] تقول ابدأ بنفسك ، فحاول أن يكتب هو صحيفة أسبوعية يبيعها . . وماذا يكتب فيها ؟ يكتب ما يسمع من أهل هذه النواحى من أخبار . ولمن يبيعها ؟ لرُكّاب هـذه القُطُر وما تقف عليه من بلدان صغيرة ، يحب لا شك أهلوها أن يسمعوا عن أنفسهم وعن جيرانهم كل شائعة شائقة ونادرة . وأين طبعها ومن طبعها ؟ طبعهـا هو نفسه فى ذلك المكان من العربة التى اختصوه ببعضها ليحمل فيه بضاعته .

وقد تحسب أنه لابدّ درس دراسة شديدة متواصلة فى خير مدرسة حتى يستطيع أن تتكشف رغائبه عن حب معمل ، أو تمرُّن يده على كتابة صحيفة . فاعلمْ أننا نتحدث عن غلام بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ولا يمكن أن يكون اتسع عمره لذلك . واعلمْ أيضا أنه لم يذهب قبل ذلك إلى مدرسة ، غير ثلاثة أشهر ، ضجّ مدرّسه فى نهايتها من قصور عقله ، أو ما حسبه فيه قصورا ، فصاح

به « يا قاصر العقل ! » . فمرّ هذا النداء على أمه ، وخشيت عاقبته على ابنها وحبيبها ، فحجزته فى البيت تعلّمه هى الكتابة والقراءة ، وكانت مدرّسة من قبل . فعلّمته الخط ، فكان خطا جميلا . وعلّمته القراءة ، وعلّمته كيف يقرأ الكتب وحده ، وكيف يستخلص منها بنفسه أنجع ما يمكن استخلاصه . حتى لقال بعضهم إن تلك السّبّة الأولى التى سبّها إياه مدرّسه الأول ، والأخير ، كانت عليه نعمة وبركة . وأنه لولا أن أخرجته هذه الشائنة من هذه المدرسة ، لبقى فيها ، فانطبع فى ذلك القالب الذى يتطبع فيه كل تلميذ ، ولكان كبعض تلك الأشياء التى تخرجها المصانع بالآلاف ، فلا يتميز فيهما قميص عن قميص أو حذاء عن حذاء .

إن المصادفات لتلعب الألعاب ، والألاعيب ، فى حياة الرجال . وما أكثر ما لعبت فى حياة هذا الطفل . فالسبّة الأولى التى سبّها الأستاذ إياه مصادفة أولى ، وأن كانت له تلك الأم المدرّسة الحنون العاقلة مصادفة ثانية . ثم مصادفة ثالثة فتحت له الباب يقينا إلى تلك الحياة التى تقاضته من سجل التاريخ صفحات ليست بالقليلة عدّاً ، ولا بالقليلة خطرا : تلك أنه كان يوما فى إحدى المحطات ، فى تطوافه ببيع الصحف ، فلفتته عربة انفصلت عن قطارها وجرت تهوى إلى حيث كان طفل يلعب . فما أدرك غلامنا ما رأى حتى أعطى للريح ساقيه ، واختطف الطفل ، ونجا به وبنفسه فى آخر ثانية . وكان أبو الطفل تلغرافيا ، فأثّر فى نفسه ما صنع الغلام ، فعرض عليه أن يعلّمه فنّه ، فرضى ، وترك عملا فيه رزق غير قليل ، إلى دراسة لا رزق فيها ، ولكن فيها اشتهاؤه ، وفيها اشتفاء نفسه من علم تلك الأسرار التى أخذت تناوشه عبثاً آنها فى ذلك السن الباكر .

كان هذا عام ١٨٦٢ . وكان الغلام فى الخامسة عشرة من عمره .

ومرّ عام لحذق الغلام فنّه الجديد . ومن هذا العام تقلّب فى وظائف التلغراف ، وتنقّل فى المدن . ولم يشغله فنّه الآلى عن استطلاع ما خفى وراءه . فظل يدرس ، وظل يجرّب ويتقصّى . حدث مرّة أنه كان فى بلدة عند الحدود . فكانت ترسل له المحطة التى فى الجانب الآخر رسالة تلغرافية كل ساعة ، نقطا معدودة ليرد عليها بنقط مثلها ، دليلا على أنه صاحٍ يقظان . وكان من كثرة عمله التجريبى غير الرسمى ، يأخذه النوم . فخشية أن يكتشف أمره ابتدع عجلة ذات أسنان ، وربطها بساعة ، وربطهما كليهما بآلة الإرسال . فكانت كلما دقّت دقات الرتيبة فى مكتبه أجابتها تلك العجلة بما طيّب خاطر الرئيس . ولكن حدث أن دقوا الدقات فى غير تمام الساعات فلم يأتهم عنها الجواب . فحيّرهم ذلك حينا . ولكن صاحبنا اكتشف أمره أخيرا فافتضح افتضاحة لا شك كانت حافزة .

وابتدع فى تلك الحقبة حِيَلاً كهربائية تقتل ما فى مكتبه من صراصير وفئران .

وأراد أن ينفع الساسة بعلمه ، فما كان أخيبه . لقد فاته أن يتعلّم أن السياسة والعلم لا يمتزجان ، فى زمنه ذاك وفى كل الأزمان . فإنه ذلك فى سن الحادية والعشرين ، وهى سن غرورة أمّالة . وقصة ذلك أنه حضر مجلس النواب ، ورأى كيف يضيّع النوّاب كثيرا من الوقت فى التصويت فرداً فرداً . فابتدع بدعة تسجيل الأصوات فتوفر هذا الوقت الضائع . وتجرّأ وذهب بها إلى رجل السلطة فى البرلمان ، فاستمع له الرجل الكريم ، ثم ابتسم . ثم قال : يا عزيزى الفتى الظريف ، إذا استطعت أن تبتدع لنا بدعة تطيل لنا وقت التصويت فوق ما هو طائل ، فافعل . إن الزمن ليس هنا من مكاسبنا ، ولكن من مكاسبنا أن نعرقل تشاريع إذا هى فاتت سريعاً ضرّت بنا ضرراً بليغاً .

وبلغ الثانية والعشرين ، فاعتزم أن يودّع منصب التلغراف ، وأن ينصّب نفسه في السوق « مهندساً ميكانيكياً كهربائياً » . ورحل إلى نيويورك فارغ الجيب . ولكنه ما لبث أن شق طريقه ، فلم يمض سنتان حتى كانت له ورشة ، وله رجال يصنعون شتى الأشياء من كهربائية وميكانيكية مما يخال هو ويبتدع . وكان أحسن ما ابتدع في هذه الفترة التلغراف الرباعيّ . وتفسيره أنه تلغراف ذو سلك واحد ، ولكن عليه تُرسَل أربع إشارات مختلفة في وقت واحد . وأراد أن يبيعه لشركة . فاشترط عليه رئيس كهربائيها أنه لن ينصح الشركة بالشراء حتى يكون اسمه إلى جانب اسمه شريكين في اختراعه . فقبل صاحبنا أن يبيع من نفسه بالكذب . قال في ذلك : « لقد كنت أحوج إلى المال مني إلى المجد ، وكان الرجل على ما أظن أحوج إلى المجد منه إلى المال ، فتوافقنا » .

وترك الأشياء التلغرافية ، وانصرف إلى الأجهزة التلفونية . وكان « جراهام بيل » Graham Bell قد اخترع التلفون ، إلا أنه كان تلفوناً ضعيفاً يعتمد في الأغلب على المغنطيسية في حمل آثار الصوت ، لهذا كان مداه قصيراً . فعمد صاحبنا إلى دراسته ، فأدخل فيه الكهربة أساساً لنقل الصوت ، ووضع وراء القرص من السماعة حبيبات من فحم تنضغط تارة ، وتتخلخل تارة ، كلما تذبذب القرص منا غمةً للصوت ، فتضعف تيار الكهرباء فيها وتزيد ، وينتقل كل هذا إلى مسافات لا يحدّ من مداها إلا قوة التيار . وبهذا ، وبأشياء أخرى ابتدعها فيه ، أمكن التلفونَ أن يكون له شأن شامل في حياة الناس .

كان هذا أول عمل ذي خطر تألّق به نجم إدِسُن ، وأخذ يشتهر به معمله في « مِنلو بارك » .

ثم إنه إدِسُن هذا الذي نترجم له — توماس إدسن Thomas Edeson — قد يُعَدّ بعد الذي قلناه فيه من خفاء .

ثم هو هو بائع الصحف الأصم ، الذي لم يتثقف في مدرسة ، وإنما استقى دَرّ التعلّم من ثدي أمّه أولاً ، ثم من أثداء الحياة ، واستقاه منها حلواً مرة ، ومُرّاً مرارا .

وانصرف بعد التلفون إلى الصوت يدرس أمواجه ويبتدع الأجهزة لتحليلها . حتى جاء يوم أتم فيه هو ورجاله صنع جهاز غريب ، غنّى في بوق فيه وهو يدور أغنيةً للأطفال شهيرة — «كان لمريم خروف صغير» — ثم سكت المغنّي وأسكت الجهاز ، ثم أداره ، فإذا بهذا الجهاز ، وهو من معدن أصمّ ، يغنّي : «كان لمريم خروف صغير» . بُهِت رجال إدسن ، وبُهِت معهم العالم . فقد كان هذا أول حاكٍ لصوت إنسان . وأسماه فونوغرافا ، وأسميناه هكذا من ورائه .

ثم اتجه هذا الرجل القُلّب إلى الضوء والإضاءة . وكان أقصى ما وصلت إليه الإضاءة بالكهرباء مصباحَ القوس : عودان من الفحم يتقارب طرفاهما ولا يتماسان ، تجري الكهرباء عبرا بينهما ، وتحمل معها من أحد الطرفين جسيمات الفحم حارةً متقدة ، فينبعث باتقادها الضياء . وهو ضياء يُعشي العين . وله في الأذن طنين . وهو مما لا تستطيع أن تأخذه رشفاً ، ولكن عبّاً ورغمك . قال إدسن : إن كان هذا الضوء من جسيمات فحم تحترّ فتضيء ، فلِمَ لا تجري الكهرباء في خيط من الفحم رفيع متصل ، فيحترّ هو كذلك ، ويتوهّج . ولكن الفحم يحترق في الهواء . وإذن يوضع خيط الفحم في وعاء من زجاج يُفرّغ منه الهواء . وصنع الخيط أولاً من خيط قطن فحّمه . وبعد جهاد طويل ، وبعد نفقة بلغت أربعين ألف ريال ، أخرج إدسن في معمله الشهير — معمل منلو بارك — أول مصباح كهربائي ، كهذا الذي أكتب الليلة في ضيائه . وأضاء هذا المصباح أربعين ساعة .

كان اختراعا وليدا لابد من تغذيته وتنشئته وتربيته ،

الآثار المصرية القديمة

لم لا تطالب مصر ألمانيا وإيطاليا واليابان — بعد ما تضع الحرب أوزارها — برد جميع الآثار المصرية القديمة الموجودة في متحف برلين، وفي متاحف سائر المدن الألمانية؛ وفي متحف روما وفي متاحف سائر المدن الإيطالية؛ وفي متحف طوكيو وفي متاحف سائر المدن اليابانية، جزاء وفاقا لما أصابنا من أضرار جسام في النفس وفي المال ونحن آمنون مطمئنون في بلادنا لم نعتد على أحد ولم نتحرش بأحد؟ ولا سيما أن معظم هذه الآثار تسربت إلى أوروبا وغير أوروبا من غير الطريق الحلال. إذا ردت بضاعتنا إلينا يصبح المتحف المصري أعظم متحف للآثار المصرية في العالم كله.

في متاحف ألمانيا وإيطاليا واليابان آثار مصرية ذات قيمة فنية وتاريخية عظيمة جداً، منها تماثيل ومصاطب، ومومياوات وتوابيت وحمارين وأحجار كريمة — من ذهب وفضة وزبرجد — ومجوهرات ومصوغات وعملة ذهبية وفضية، وأقمشة وأوراق بردي، ومخطوطات ولوحات أثرية قديمة عليها نقوش هيروغليفية وإغريقية ورومانية وعربية، تحدثك عن درجة ما بلغه قدماء المصريين في العلوم والفنون: في الطب والجراحة والتشريح والتحنيط والهندسة والكيمياء والطبيعة والفلك والفقه (حتى الوقف عرفوه) والفلسفة والأدب والموسيقى والشعر والأغاني والرقص والري والتجارة والزراعة والملاحة والنقش والنحت والخراطة والرسم والتصوير والغزل والنسيج وصناعة الأنسجة والصياغة والصباغة وصناعة الزجاج والورق والخزف والعطار والروائح العطرية والحناء والكحل والنبات واستخراج المعادن والأحجار الكريمة. وقد بلغت درجة الرقي عند قدماء المصريين أنه

فقام إدسن ورجاله على كل هذا. وكان وراءها المصابيح ومصادر الكهرباء، وشبكات التوزيع، والمحابس والمفاتيح، ومئات من كل هذه الأشياء التي تبدو لنا اليوم لألفتنا إياها قصيرة؛ ولكن كان لابد عند ذلك من خالقها، والخلق صعب المراس. حتى كان عام ١٨٨٢ — أي منذ ستين عاما — أنشأت « شركة إدسون » أول محطة للإضاءة بالكهرباء عرفها الخلق. أنشأتها في لندن. ولمن يعرف لندن أقول إنها أنشأتها عند نهاية ذلك الشارع الطويل، شارع هوبرن Holborn، أو على الأصح عند Viaduct. وأنشأتها لغذاء ثلاثة آلاف مصباح. ولم يمض عام حتى أنشئ مثلها في مدينة نيويورك، ثم تكاثرت الإنشاءات في المدن حتى لم تبق مدينة ذات خطر لم يصلها من ضوء هذا الرجل ضياء.

ليس في الورق متسع للحديث عما صنع هذا الرجل الضخم للسينما، ولا عن تلك الكثرة الكبيرة من مبتدعاته ومخترعاته، فالتي سجلت منها بلغ الألف وزاد. ولكثرة ما ابتدع كان الجمهور يكاد ينتظر منه ابتداعة كل يوم، وحاطه رجال الصحف كل حين يستخبرون، وجاءه يوما صحفي شاب مستخبرا، فلما لم يفز منه بطائل، ورأى أنه راجع بالخفين التقليديين — خفي حنين — ابتدع هو عن هذا الرجل العظيم خبرا نشره في صحيفته فاهتز له الناس: أن أدسون اخترع قميصا لا يحتاج للغسل أبدا. فهو مكون من ٣٦٥ طبقة رقيقة، فما على لابسه إلا أن ينزع منه الطبقة التي تمس جسمه كلما اتسخت.

وبلغ الرجل السبعين فالثمانين، وهو دائب يعمل، واعتلت صحته بغتة عام ١٩٢٩، ومات في أول أغسطس عام ١٩٣١.

أحمد زكي

كان لـكل فرع من كل فن ومن كل علم إخصائيون ، فالطب مثلا كان له أطباء إخصائيون فى طب الركبة .

نجـد فى متاحف روما وتورينو ونابولى وبولونيا وفلورنسا وبالرمو ومسينا ، وفى متاحف المدن الإيطالية الأخرى مثل كورتونا وفرارا ورافنـا وأستى ومورانو وكورشللو وروفيجو وريجيو وسوريتتو آثارا مصرية قديمة من أيام الفراعنة ومن أيام البطالسة ومن أيام الرومان ومن عهد الإغريق ومن زمن العرب . ونجد فى مدينة بارى مخطوطـات عربيّة فى غاية الأهميّـة التاريخيّة والفنيّة . ونجد فى مدينة سالرنو لوحتين مصريتين قديمتين من الجرانيت ذات قيمة فنيّة تاريخيّة كبيرة .

فى متحف تورينو تمثال لرمسيس الثانى وزوجته نفرتارى ذو أهميّة تاريخيّة كبيرة ؛ وفيه أيضا مجموعة آثار مصرية قديمة نفيسة جدا جمعها مسيو دروفيتى السياسى الإيطالى المعروف ، الذى عيّنه نابليون قنصلا جنرالا لفرنسا فى الإسكندرية فى عهد محمد على باشا الكبير ، فجمع فى مدة وجوده فى مصر مجموعة عظيمة باع بعضها إلى ملك إيطاليا وهى الآن تزين متحف تورينو فى إيطاليا ، وباع باقيها إلى ألمانيا ؛ ويوجد فيه جزء من مجموعة بلزونى ، وجزء من مجموعة لازونى ، ومجموعة ماسار . كما يوجد فيه أيضا بردى كتب فى عهد رمسيس الثانى حصل مشتراه من بعض أهالى مدينة الأقصر فى سنة ١٨١٨ ، مكتوب عليه جدول بأسماء ملوك مصر ؛ ويمتاز جدول هذا البردى على سائر الجداول المعروفة بأنه يبين مـدّة حكم كل ملك بالسنين والشهور والأيام .

وقد أصـدر الملك فيكتور إمانويل الثالث ملك إيطاليا أمرا بتأليف بعثة للتنقيب عن الآثار المصرية تحت رئاسة السنيور أرنستو شياباريلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، فحضرت البعثة إلى مصر وبقيت دائبة على أعمال الحفر والتنقيب عشر سنوات (من سـنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩١٣) فيها قامت بأعمال الحفر والتنقيب فى مقابر الملوك ، فعثرت على قبر بديع للملكة نيفرتى زوجة رمسيس الثانى ؛ كما عثرت على آثار كثيرة فى دير المدينة منها مقابر خاى وماى . ثم انتقلت إلى المنطقة المحيطة بأهرامات الجيزة ومدافن الأشمونيين وأسيوط وأسوان والجبلين والحاميد وقاو وهليوبوليس ، جمعت منها آثارا كثيرة تسرّب جزء عظيم منها إلى إيطاليا . وفى متحف تورينو كذلك مجموعة من أوراق البردى ، وهى من الآثار التى جمعها مسيو دروفيتى من مدينة الأقصر ، واشتراها منه ملك إيطاليا كارلو إمانويل الثالث فى سنة ١٨٢٤ . كما أن فيه أيضا مجموعة الدكتور دوناتى العالم الأثرى الإيطالى المشهور .

وفى متحف نابولى آثار مصريّة قديمة منها كتاب الموتى من عهد الأسرة الفرعونية الثامنة عشرة . كما توجد فيه مجموعة آثار متحف بورجيا .

ويوجد فى متاحف ميلانو وبولونيا وفلورنسا أقسام مخصصة لأقدم قدماء المصريين ، وأقسام للموميات ، وأقسام للآثار الإغريقية ، وأقسام للنقوشات والكتابات المصرية القديمة ، وأقسام للفن الإغريقى الإسكندرى ، وأقسام للمقابر ، وأقسام لمركبات الفراعنة ومنها المركبة التى عثر عليها روزلينى فى الأقصر ، وهذا علاوة على الأقمشة والأسلحة وأدوات الموسيقى والزينة والزخرف . وفيها توجد أيضا النقوش البارزة التى انتزعت من مقبرة سيتوزيس الأول بمقابر الملوك بالأقصر . كما توجد فيه كتابات من عهد سانوريت الأول فرعون مصر نقلت من معبد بوهن . وفى متحف مدينة البندقية وفى متحف مدينة سان جان دى لاتران آثار مصرية قيّمة جدا .

وفى روما مسلات مصرية كثيرة منها : مسلّة قائمة فى ميدان الأمّة ، ومسلّة منصوبة فى ميدان مارى بطرس ، وثالثة فى سان جان دى لاتران ، ورابعة أمام القصر الملكى ، وخامسة فى مونتى شيتوريو ، وسادسة فى سراى بربيني ،

وسابعة فى ميدان فونتانا دى فيوى ، وثامنة فى فيللا ماتى يرجع تاريخ صنعها إلى عهد رمسيس الثانى ، وتاسعة فى ميدان سانت ماريا مافيورى ، وعاشرة فى ميدان مينيرفا ، وهى مسلة صنعت فى عهد أحد ملوك الأسرة الثالثة والعشرين وقد نقلت من مصر إلى إيطاليا فى عهد الرومان وكانت تزين معبد إيزيس وسيرابيس ، والحادية عشرة منصوبة فى ميدان نافونا ، والثانية عشر فى مونتى كافالو .

وتوجد مسلة فى كاتانيا (جزيرة سيسليا) وأخرى فى بلدة بنيفنتو ؛ ومسلتان أخريان فى القسم المصرى من متحف فلورنسا وهما من عهد رمسيس الثانى ، حتى إن أحد أهالى فلورنسا واسمه بوبولى زين حديقة بيته بآثار مصرية ، منها مسلة من عهد رمسيس الثانى كانت منصوبة فى هليوبوليس ونقلت إلى إيطاليا فى عهد الإمبراطور الرومانى كلوديوس .

ولما زار الأرشيدوق مكسيمليان النمساوى (وهو الذى نصبوه إمبراطورا على بلاد المكسيك وأعدمه الثوار رمياً بالرصاص) القطر المصرى فى سنة ١٨٥٥ أخذ مجاناً لوجه الله جميع الآثار التى اشتهتها نفسه ، واستولى على طائفة كبيرة من أنفس الآثار نقلها إلى قصره « ميرامار » على مقربة من تريستا ، وهى الآن تزين متحف فيينا (عاصمة النمسا) .

وجمع مستر هرير قنصل جنرال دولة النمسا مجموعة من الآثار المصرية ونقلها إلى بلاده .

وفى متحف أجرام (بالنمسا) توجد آثار مصرية ، كما توجد فى متحف فيينا أوراق بردى كثيرة .

وفى متحف برلين توجد رأس الملكة نيفرتيتى زوجة الملك أخناتون ، وهى آية من الآيات ، ويعدها هواة الآثار من أجل الآثار المصرية القديمة . كما توجد فيه بعض (الألواح المسمارية) المعروفة باسم « رسائل تل العمارنة » وهى رسائل تبادلها فرعون مصر أمينوفيس الثالث مع ملوك سوريا فى القرن الرابع عشر قبل ميلاد المسيح ؛ كما توجد فيه لوحة أثرية مصرية عثروا عليها فى أخميم صنعها نحت مين أول نبى للإله تير إله قفط . وفيه أيضا بردى فيه مرسومان من عهد الإمبراطور تير الرومانى ، وبردى مشهور باسم « ويلانس » . كما توجد فيه مسلة معروفة باسم ابسيوس ، وهى من أقدم المسلات المصرية عثر عليها فى سنة ١٨٤٠ بالقرب من مدفن بجوار أهرام الجيزة .

ولما تولى مجمع العلوم فى برلين أعمال التنقيب فى منطقة أبى صير عثر فى خلال سنة ١٩٠٠ على ملف من البردى مكتوب عليه ٤٠٠ بيت شعر من نظم تيموتين أعظم شعراء اليونان ، نقل خفية إلى متحف برلين .

وجمع فون ترافورس قنصل جنرال ألمانيا مجموعة من الآثار المصرية نقلها إلى ألمانيا . وروت إحدى السائحات السيدة لى شابلد بأن ناووس افندى قنصل ألمانيا فى الأقصر كان يتجر بالآثار المصرية فجمع موميات ومخطوطات ومجوهرات وتماثيل وجعارين وباعها إلى السياح الألمان منقولها إلى ألمانيا . ومسيو بروكش قنصل بروسيا فى مصر جمع مجموعة أيضا أرسلها إلى ألمانيا .

وفى ألمانيا أنشأ الملك فردريك غليوم الثالث قسم المتحف المصرى بشراء مجموعات الآثار المصرية التى كان جمعها مينوتولى وباسالاكوا ودروفيتى وسلونيه ، وأهمها مجموعة باسالاكوا التى اشتراها الملك فى سنة ١٨٢٨ وتحوى آثاراً مصرية قيمة جداً .

ولما استوى من بعده الملك فردريك غليوم الرابع أرسل إلى مصر (سنة ١٨٤٢ إلى سنة ١٨٤٦) بعثة لتقوم بأعمال الحفر والتنقيب فى مصر وفى بلاد النوبة ، تحت رئاسة ريشارلبسيوس ، فجمعت البعثة آثاراً مصرية قديمة كثيرة جداً نقلتها إلى متحف برلين ، منها آثار نادرة يرجع عهدها إلى زمن الدولة القديمة ، ومنها آثار تاريخية من بلاد النوبة . وفى سنة ١٨٤٨ اجتمع لمتحف برلين نواة فأنشأوا متحفاً خاصاً بالآثار المصرية ضموا إليه الآثار المصرية التى جمعها ترافورس قنصل ألمانيا الجنرال والدكتور ريتهاردت

والأستاذ بورهاردت وغيرهم . ثم زاد المتحف بالآثار التي أهداها إليه الدكتور جيمس سيمون ، والمستشار يوليوس أزاك ، والأستاذ رودلف مرس ، والأستاذ شوانيفورت ، والأستاذ ليفترو من إمارة لوبك ، ومن جمعية التنقيب المصرية الإنجليزية ؛ ومن الأستاذ فلندرس بيترى ، والأستاذ مارتين كنارد . وبعض آثار جاءت المتحف من قبيل الوصايا مثل وصية الأستاذ سبرنجر والدكتور دايل .

وبقيت آثار المتحف تزداد سنة بعد سنة إلى أن تولت الجمعية الألمانية الشرقية أعمال الحفر والتنقيب فأهدت إليه آثاراً كثيرة جداً ، منها آثار جمعتها من منطقة أبي صير .

وتجد آثاراً قيّمة أيضاً في متحف مدينة درسدن (بألمانيا) ، وفي متحف مدينة ميونيخ (بألمانيا) ، وفي متحف مدينة كارلسروه (بألمانيا) ، وفي متحف مدينة فرانكفور (بألمانيا) .

وكانت الحكومة الإيطالية والحكومة الألمانية والحكومة النمساوية ترسل بعثات إلى مصر لعمل حفريات فيها واستخراج ما في بطن أرض مصر من تحف وآثار وبعد العثور عليها تتسرب إلى إيطاليا وألمانيا والنمسا ؛ كما أن بعض الجامعات الإيطالية والألمانية والنمساوية كانت ترسل بعثات على نفقتها الخاصة لعمل حفريات ، مثل معهد العلوم ببرلين ، وكلية لايبسك (بألمانيا) ، وكلية كوتنجن (بألمانيا) ومجمع العلوم بفيينا (النمسا) ، وجمعية الردى (بإيطاليا) . كما أن بعض المتاحف مثل متحف بالك (المجر) أرسل بعثة لعمل حفريات في مصر ، وما عثر عليه نقله إلى متحف بودابست (عاصمة المجر) .

لم أعثر على إحصائية بعدد الآثار المصرية الموجودة في إيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر واليابان . في المتحف البريطاني بلندرة يوجد ٦٠٫٠٠٠ أثر (حسب إحصائية سنة ١٩٣٠) عدا ما هو موجود في المتاحف الخصوصية التي كان يملكها كبار أعيان الإنجليز . وفي متحف اللوفر بباريس أكثر منها ، وربما وصل عدد الآثار الموجودة في فرنسا مائة ألف . وفي المتاحف الملكية ببروكسل (بلجيكا) يوجد ٦٦٣٠ أثراً ، إذا أضيفت إلى الآثار الموجودة في المتاحف البلجيكية الأخرى بلغ عددها ١٠٫٠٠٠ . والذي أرجّحه أن عدد الآثار الموجودة في متاحف إيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر يزيد على ٨٠٫٠٠٠ أثر قيمتها في كيفها لا في كمها . في كل أثر من هذه الآثار صفحة من تاريخ مصر القديم ، ومجموع هذه الآثار يؤلف أكبر موسوعة لتاريخ مصر القديم . فلم لا ننتهز فرصة انتهاء هذه الحرب وانهزام ألمانيا وإيطاليا واليابان ونطالبهم برد الآثار المصرية القديمة وهي جزء من تراثنا وجزء من تاريخنا ، كما انتهزنا فرصة انكسارهم في سنة ١٩١٨ وحصلنا على إلغاء الامتيازات الأجنبية .

هذا نداء أوجهه إلى أولي الأمر منا . وفقنا الله لما فيه خير مصر والمصريين .

عزيز خانكي

صاحب امتياز المجلة
رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر
أحمد أمين بك
....
رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف

الاشتراك لستة أشهر
صـ
٤٥ في مصر والسودان
٣٧/٥ لطلبة ومعلمي الإلزام
٦٠ في الممالك الداخلة ضمن اتحاد البريد
٧٥ في الممالك الخارجة عن اتحاد البريد

ثمن العدد ١٥ مليما

صفحات مطوية من التاريخ الإسلامي :

٢ - البلغار المسلمون

ثم يقول ابن فضلان :

« وقد كان يخطب له قبـل قدومنا اللهم أصلح الملك بلطوار ملك البلغار . فقلت له : إن الله هو الملك . ولا يجوز أن يخطب بهذا أحد ، سيما على المنابر . وهذا مولاك أمير المؤمنين قد رضى لنفسه أن يقال على منابره فى الشرق والغرب : اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفراً الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين . فقال كيف يجوز أن يقال ؟ فقلت بذكر اسمك واسم أبيك . قال : إن أبى كان كافراً ، وأنا أيضا ما أحب أن يذكر اسمى إذا كان الذى سمانى به كافراً . ولكن ما اسم مولاى أمير المؤمنين ؟ فقلت جعفر . قال : فيجوز أن أتسمى باسمه ؟ قلت نعم ! قال قد جعلت اسمى جعفراً واسم أبى عبد الله . وتقـدم إلى الخطيب بذلك ، فكان يخطب اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبد الله أمير بلغار مولى أمير المؤمنين » .

ومما ذكر ابن فضلان من المشاهد الطبيعية أنه رأى البلد عند طلوع الشمس يحمر كل شىء فيه : من الأرض والجبال وكل شىء ينظر الإنسان إليه ، وأن الشمس تطلع كأنها غمامة كبيرة فلا تزال الحمرة كذلك حتى تتكبد السماء . وقال : إنهم يتبركون بعواء الكلب جداً ويعدونه بشرى بالخصب والسلامة .

وهذا خلاف ما يراه المصريون فى عواء الكلب فهم يتشاءمون به . وزعم أنه رأى الحيات عندهم كثيرة حتى يلتف على الغصن من الشجر عشر منها وأكثر ولا يقتلونها ولا تؤذيهم .

ووصف شجراً هناك يشبه النخل يستخرجون من ساقه ماء حلوا يسكر إذا أكثر منه الشارب .

ثم قال : « وأكثر أكلهم الجاموس ولحم الخيل ، على أن الحنطة والشعير كثير فى بلادهم . وكل من زرع شيئاً أخذه لنفسه ليس للملك فيه حق ، غير أنهم يؤدون إليه من كل بيت جلد ثور . وإذا أمر سرية بالغارة على بعض البلدان كان له معهم حصة . وليس عندهم شىء من الأدهان غير دهن السمك فإنهم يقيمونه مقام الزيت والشيرج . وكلهم يلبسون القلانس ، فإذا ركب الملك ركب وحده بغير غلام ولا أحد معه . فإذا اجتاز فى السوق لم يبق أحد إلا قام وأخذ قلنسوته عن رأسه وجعلها تحت إبطه ، فإذا جاوزهم ردوا قلانسهم فوق رؤوسهم . وقد ذكر بعض الأحوال الفلكية فى تلك البلاد ، وكان هذا موضع العجب فى البلاد الإسلامية الأخرى . قال :

« ودخلت أنا وخياط كان للملك من أهل بغداد قبتى نتحدث فتحدثنا بمقدار نصف ساعة ونحن ننتظر أذان العشاء ، فإذا بالأذان فخرجنا من القبة وقد طلع الفجر . فقلت للمؤذن أى شىء أذنت ؟ قال الفجر . قلت فعشاء الأخيرة ؟ قال نصليها مع المغرب . قلت فالليل ؟ قال : كما ترى وقد كان أقصر من هذا ، وقد أخذ الآن فى الطول . وذكر أنه منذ شهر ما نام الليل خوفا من أن تفوته صلاة الصبح ، وذلك أن الإنسان يجعل القدر على النار وقت المغرب ، ثم يصلى الغداة وما آن لها أن تنضج . ورأيت النهار عندهم طويلا جدا . فلما كانت الليلة الثانية جلست فلم أر فيها من الكواكب إلا عددا يسيرا ظننت أنها فوق الخمسة عشر كوكباً متفرقة ، وإذا الشفق الأحمر الذى قبل المغرب لا يغيب البتة ، وإذا الليل قليل الظلمة يعرف الرجل الرجل فيه من أكثر من غلوة سهم . والقمر إنما يطلع فى أرجاء السماء ساعة ثم يطلع الفجر فيغيب القمر .

قال ابن فضلان : وعرفنى أهل البلد أنه إذا كان

الشتاء عاد الليل في طول النهار وعاد النهار في قصر الليل ، حتى إن الرجل منا ليخرج إلى نهر يقال له إتيل بيننا وبينه أقل من مسافة فرسخ وقت الفجر ، فلا يبلغه إلى العتمة إلى وقت طلوع الكواكب كلها .

— ٥ —

وقصر الليل إلى هذا الحد كان موضع اهتمام الجغرافيين والرحالين والفقهاء .

قال ابن بطوطة : وقد كنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه إليها لأرى ما ذكر من انتهاء قصر الليل بها ، وقصر النهار أيضا في عكس ذلك الفصل . وكان بينها وبين محلة السلطان (يعني السلطان محمد أوزبك خان) مسيرة عشر ؛ فطلبت منه من يوصلني إليها ، فبعث معي من أوصلني إليها وردّني إليه ، ووصلتها في رمضان . فلما صلينا المغرب أفطرنا ، وأذّن بالعشاء في أثناء إفطارنا ، فصليناها وصلينا التراويح والشفع والوتر ، وطلع الفجر إثر ذلك . وكذلك يقصر النهار بها في فصل قصره أيضا .

أقول في هذا الكلام نظر . فبين غروب الشمس وطلوعها في أكثر بلاد بلغار وقزان حين يبلغ الليل نهاية القِصَر ستّ ساعات ونصف . وقد ذكر هذا ابن فضل الله العمري من قبل ، إذ روى عن الإربلي أن أقصر ليالي بلغار أربع ساعات ونصف . والمعروف أن بين الفجر والشروق في تلك البلاد نحو ساعتين .

وأظن أن الأمر اشتبه على ابن فضلان وابن بطوطة وأمثالهما ، لأن الشفق لا يغيب فيبقى الضوء بعد غروب الشمس إلى أن تطلع ، فلا فرق بين شفق الغروب وشفق الطلوع ، فلا يحدّ وقت العشاء الذي حده الفقهاء بما بين غياب الشفق إلى الفجر . فإن صدق ما ذكره ابن فضلان وابن بطوطة فقد كان بين أذان الفجر الذي سمعا وبين طلوع الشمس نحو أربع ساعات أو خمس .

وإنما يصدق ما قالا في بلاد أبعد من بلغار شمالا ، كما قال ابن فضلان في رسالته : « وحدثني الملك أن وراء بلده بمسيرة ثلاثة أشهر قوم يقال لهم "ويسو" ، الليل عندهم أقلّ من ساعة » .

وقد ثار الجدل بين الفقهاء في وجوب صلاة العشاء على أهل بلغار . وكان هذا الجدال سبب شهرة هذه البلاد في الأقطار الإسلامية . روى صاحب القُنية في فقه الحنفية أن شمس الأئمة الحلواني سئل عن حكم صلاة العشاء في بلاد يطلع فيها الفجر قبل غياب الشفق في أقصر ليالي السنة ؛ فأفتى بوجوب الصلاة . ثم جاء الاستفتاء إلى سيف السنّة البقالي بخوارَزم فأفتى بأن العشاء غير واجبة . فأرسل الحُلواني إلى البقالي من سأله في جامع خوارزم : ما تقول فيمن أسقط من الصلاة الخمس واحدة هل يكفر ؟ فلما سمع الشيخ السؤال عرف مقصود السائل فقال له : أرأيت من قطعت يداه من المرفقين ، أو رجلاه من الكعبين كم فرض وضوئه ؟ فقال ثلاثة ، لفوات موضع الرابع . قال الشيخ كذلك الصلاة الخامسة . وبلغ الحلوانيّ جواب البقالي فاستحسنه . ووافقه على إسقاط صلاة العشاء في تلك البلاد .

وقد ثار الجدل من بعدُ في هذه المسألة ، واختلفت فيها الآراء ، وألّفت فيها كتب خاصة . وكان هذا الجدل في هذه المسألة معرّفا بهذه البلاد العجيبة ، بلاد بلغار ، فتردد ذكرها في كتب الفقه والجغرافيا والرحلات ، حتى زار ابن بطوطة بلغار ليشهد قصر الليل بها كما سمع .

— ٦ —

وكانت بلغار بإسلامها متصلة بالبلاد الإسلامية تبادلها السِلَع وتتوسط بينها وبين أوروبا المسيحية في تبادل التجارة . فكانت السلع الآتية من أقصى الشمال تبادَل بالسلع الآتية من الأقطار الإسلامية المختلفة . وقد عثر في

اسكندناوة على سكة إسلامية ترجع إلى العصر العباسى ، وفى هذا دليل على بلوغ المعاملات الإسلامية هذا الصقع .

وكان أكثر ما يجلب من البلغار وبوساطتها ، الفراء الثمينة والجلود .

وكان أخذ أهل بلغار العلم والدين عن أقرب الأقطار الإسلامية إليهم ، بلاد ماوراء النهر .

وقد حفظ التاريخ أخبار طائفة من العلماء نشأتهم بلغار ، ولكنها لبعدها إلى الشمال وتطرفها لم تسجل أخبارها وأخبار أهلها كثيرا فى كتب المؤلفين المسلمين ، وكانت بلاد ماوراء النهر أكثر اتصالا بهم لأنها أقرب إليهم .

وقد عرفت أخبار بعض العلماء الذين رحلوا إلى بلغار ، منهم أبو عبيد الله الغرناطى صاحب تحفة الألباب ، وقد رويت عنه أخبار عن الباشقر والبلغار . وكتابه مخطوط فى دور الكتب بالآستانة . وكانت وفاته حوالى سنة ٥٣٠ هـ .

ومنهم أبو حامد الأندلسى صاحب كتاب المغرب فى عجائب المخلوقات ؛ دخل بلغار سنة ٥٣٩ وصحب قاضيها يعقوب بن النعمان .

ومنهم ابن بطوطة ، وقد قدمنا ما قال من رحلته إلى بلغار .

وممن حفظ التاريخ أسماءهم وطرفا من أخبارهم ، من علماء هذه البلاد ، يعقوب بن النعمان قاضى بلغار وقد ألف تاريخا لها ؛ ولكن تاريخه مفقود اليوم . وقد لقيه أبو عبد الله الغرناطى كما تقدم ، ونقل عنه أبو حامد الأندلسى وعده من أصحاب إمام الحرمين . توفى حوالى سنة ٥٥٠ هـ

ومنهم الشيخ سليمان بن داود السقسينى ؛ ألف كتابا فى الوعظ بالفارسية سماه بهجة الأنوار ، ثم عربه وزاد عليه وسماه نزهة القلوب المراض .

ومنهم الشيخ برهان الدين البلغارى شارح فصول النسفى فى علم الجدل .

— ٧ —

وهذه المملكة التى ابتدأ تاريخها الإسلامى فى أوائل القرن الرابع الهجرى استمرت بعد إسلامها أربعة قرون تدافع عن نفسها الأمم المجاورة لها ، والتتار القادمين من الشرق .

وقد خلف جعفر بن عبد الله أول الملوك المسلمين ابنه أحمد ، ولعله الذى عناه المسعودى إذ قال عن الأمير جعفر إن ابنه حج ، وقدم بغداد وقوبل بالحفاوة . ثم خلف أحمد ابنه طالب ، وقد عثر على سكة ضربت باسمه فى بلغار سنة ٣٣٨ . ثم توالى الأمراء على الملك . ووقعت واقعات بينهم وبين الروس وغيرهم من مجاوريهم إلى أن كانت غارات التتار الكبرى ، فسارت التتار المغربة محاربين حتى بلغوا بلغار أواخر سنة ٦٢٠ هـ . ويقول ابن الأثير : فلما سمع أهل بلغار بقربهم كمنوا لهم فى عدة مواضع واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم ، وأخذهم السيف من كل ناحية فقتل أكثرهم ، وسارت بقيتهم مشرقة . واتصلت الطرق بين بلغار والبلاد الإسلامية بعد أن قطعها التتار حينا .

ثم عاد التتار إلى الغرب واضطر البلغار إلى مصالحتهم والدخول فى طاعتهم سنة ٦٥٣ . وتقلبت بهم الأحوال من بعد حتى سنة ٨٣٤ هـ . ثم لا تذكر التواريخ المعروفة بلغار بعد هذه السنة ؛ ويظن بعض المؤرخين أن الروس استولوا عليها بعد نضال طويل .

وزوال مملكة البلغار لا يدل على زوال الأمة ، فقد بقيت هذه الأمة المسلمة فى موضعها بين الفلجا وجبال أورال حتى اليوم . ولكن غلب على معظم هذه البلاد اسم قزان بدل بلغار ؛ وذلك حينما أخذت مدينة قزان مكانة مدينة بلغار فى السياسة والحضارة .

عبد الوهاب عزام

سيرة سيف بن ذى يزن

وهذه سيرة من سير الأدب العربى الشعبى بشرت بالإسلام فى الجاهلية وعرضت المسألة السامية الحامية ، فى كل جزء من أجزائها السبعة عشر ، وهى تلح على القارئ فى وجوب الاعتقاد بأقدمية الإسلام وأفضلية نسل سام . وقد اعتمدت فى تأييدها للفكرة الأولى على ديننا الحنيف وتعاليمه القائلة بأنه قديم ، وأنه ملة إبراهيم . كما أنها عند تفضيلها للساميين على الحاميين استكتبت التاريخ ، واستلهمت العصور ، واستخدمت مختلف وسائل الدعاية . ولأمر ما تبدأ السيرة حوادثها بالكلام عن الملك اليمنى التبعى ذى يزن الذى ذاع صيته ، واشتهر أمره ، ودانت له بلاد العرب الجنوبية ، واتخذ له وزيرا حكيما عاقلا تصفه السيرة بأنه لا نظير له فى مشرق الأرض ولا فى مغربها . وكان اسمه (يثرب) ، وكان مطلعا على كثير من الكتب القديمة والملاحم المعظمة بما فيها التوراة والإنجيل وصحف إبراهيم الخليل . وقد علم (يثرب) من تلك الكتب أن نبيا اسمه محمد سيظهر الإسلام ، ويبطل سائر الأديان التى لأهل الكفر والطغيان . ومن ثم تأخذ السيرة فى عرض العلاقات بين جنوب الجزيرة وشمالها بأسلوب قصصى شيق ، وفى صورة جذابة ؛ فنحن نرى الملك ذا يزن يعد العدة ويجهز الجيوش ويسير هو على رأسها إلى الشمال لمحاربة الملك (بعلبك) ، ولم تكد جيوشه تصل إلى بيت الله الحرام إلا ويظهر ذو يزن رغبته فى هدم الكعبة ونقلها إلى اليمن (١) ، فينتقم رب البيت منه ، ويسلط عليه مختلف الأمراض التى أثنته عن عزمته . وعلى أثر هذه المعجزات يعتنق هو وجيشه الإسلام ، ويشهد أن لا إله إلا الله وأن إبراهيم خليله ، ويكسو الكعبة . ثم نجد الوزير (يثرب) الذى كان يدين بالإسلام سرا يعلن إسلامه ، ويرجو الملك أن يسمح له ببناء المدينة التى أطلق عليها اسمه ، وذلك لأنه قرأ فى كتب المتقدمين أيضا أن محمدا سيهاجر إليها . وبعد أن يفرغ ذو يزن من أرض الحجاز نراه يتجه شمالا إلى بعلبك ويبسط سلطانه ، ومن ثم ينتقل إلى أرض الحبشة والسودان ؛ وهنا تنتهى حقيقة حدود مناطق النفوذ العربى الجنوبى . فالنقوش التى عثر عليها رجال اللغات السامية سواء فى بلاد اليمن أو على طول الطريق التجارى الممتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها مارا بمكة ويثرب ومدائن صالح وتيماء وتبوك ومعان ودمشق ، وكذلك فى بلاد الحبشة ، تثبت أن تلك البقاع كانت يوما ما خاضعة للنفوذ التجارى أو الثقافى أو السياسى اليمنى . ولكن فى الحبشة والسودان نرى السيرة تنحو نحوا عجيبا ، فهى تمزج بين المعتقدات الإسلامية والسامية بعضها مزجا حاميا ، فبعد أن كانت لا تعنى إلا بالإسلام وأقدميته أخذت تتحدث عن الساميين والحاميين ، فنرى الوزير يقول مخاطبا ذا يزن :

وحلت بيت الله خيراً مباركا
يحير عين الناظرين مرقما
وساعدتنى حتى بنيت مدينتى
يهاجر فيها سيد الأرض والسما
ويظهر دين الحق شرقا ومغربا
فيا فوز ذاك العصر من كان مسلما

إلى أن يقول :

فإن مليكا علك الأرض كلها
يكن حميريا تبعيا ومسلما

(١) يذكر ابن هشام وابن الكلبى وتؤيدها النقوش السامية على أنه كانت فى الجزيرة العربية كعبات أخرى غير كعبة مكة ، ككعبة نجران باليمن وسنداد بالعراق .

بدعوة نوح داعيا كل أسود

لأولاد سام تابعين وخدّما

وتعرض السيرة بعد ذلك لشرح دعوة نوح هذه كما يرويها أبو المعالي راوي سيرة الأمصار، وسائق النيل من أرض الحبشة والسودان إلى هذه الديار؛ فهو يقول: إن نوحا عليه السلام نام مرة وكان سام قاعدا عند رأسه وحام تحت رجليه، فهب الهواء وكشف عن عورة نوح، فضحك حام وغضب سام، وتشاجر الاثنان، فاستيقظ نوح واستطلعهما الخبر، فقص عليه سام ما فعله حام، فغضب والدهما غضبا شديدا، ودعا على حام بسواد البشرة وتمنى لذريته استعباد نسل سام لها. وفي موضع آخر نقرأ كيف هاجر حام إلى إفريقية وكيف تزوج (قمر شاهق) بنت الملك (كركار)، ومن ذريتهما انحدر العنصر الحامي الأسود. فهذه الفكرة التي تتحدث عنها السيرة أعني أن الحاميين إخوة الساميين هي فكرة صحيحة، حتى إن علماء الأجناس واللغات يطلقون على الأسرة التي تضم هؤلاء الأقوام أو لغاتهم الأسرة السامية الحامية؛ كما أن القول بأن الجزيرة العربية هي الوطن الأصلي للساميين والحاميين صحيح لا غبار عليه. أما هذه العداوة التي نجد صداها في مواضع كثيرة من السيرة، والتي نقرأ شيئا منها في شعر يغرب وفي دعوة نوح، وفي قول شامة بنت الملك الإفريقي أفراح:

عسى الصفو يهدى إلى نسل حام

ينالون عزا بقدر مهاب

عسى بطشة الدهر في نسل سام

يصيرون في الناس مثل الكلاب

فتفسيرها هذه الحروب الطاحنة التي قامت بين الساميين من ناحية وبين الحاميين من ناحية أخرى، أعني بين العرب والحبش والسودان. فالمصادر التاريخية التي بأيدينا سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية تحدثنا عن كثير من هذه الحروب التي اتخذت أشكالا مختلفة، فهي طورا دينية وطورا استعمارية، وطورا تقتصر على الساميين والحاميين، وطورا تتعدى العنصرين إلى الزنوج والأوربيين[1]. وإن كانت السيرة حريصة الحرص كله على ألا تتعرض للنوع الأخير منها لعدم اتصاله بالعصر الذي تميل إلى تصويره لنا، أعني العصر الجاهلي. فالسيرة في حديثها عن هذه الحروب تفق في عرض الحياة وأعمال البطولة، وهي صادقة في هذا العرض إذا اعتقدنا أن هذه السذاجة ترجع إلى عصر متأخر لا إلى عصور سابقة للإسلام أو المسيحية. فسيف بن ذي يزن، الذي ولد لأبيه في إفريقية، والذي لقب بوحش الفلاة، والذي أتى في صباه بأعمال كثيرة تدل على بطولته وشجاعته، والذي أسند إليه مؤلف السيرة الدور الرئيسي، شخصية تاريخية لا يتسرب الشك إليها، فهو الأمير اليمني الذي قاد الجيوش العربية الحميرية وطرد الحبش من بلاده بمساعدة الفرس عام ٥٧٥ م. وقد تحدث ابن هشام عنه وذكر لنا الكثير من الأشعار التي تنسب إليه أو قيلت فيه. ولم تقف شهرة هذا القائد العظيم عند هذا، بل نراه جداً للأسرة الحاكمة في (بورنو) وبطلا من أبطال قصص سكانها.

ولكن بينما نجد مؤلف السيرة يختار سيف بن ذي يزن قائدا للساميين، إذ به يسند زعامة الحاميين إلى ملك حبشي يدعى (سيف أرعد)، فكان في اختياره للشخصية الثانية غير موفق، وذلك لأن التاريخ الحبشي ينص على أن (سيف أرعد) هذا حكم البلاد فيما بين عامي ١٣٤٤ — ١٣٧٢ م، أعني في القرن الرابع عشر، بينما سيف

(١) في حوالي منتصف القرن السادس عشر تمكن القائد الحبشي المسلم أحمد إبراهيم من هزيمة نجاشيين من نجاشي الحبشة وهما (لبنا دنجل) وابنه (كلوديوس) فاستعان الأخير بالبرتغاليين الذين أرسلوا حملة تحت قيادة (كريستوف دا جاما) أبيدت عن آخرها (راجع مقالا لي في هلال ديسمبر ١٩٣٥).

ابن ذي يزن من أبناء القرن السادس . ونقرأ في التاريخ الحبشي أيضاً أن حياة هـذا الملك كانت امتداداً لسلسلة أعمال القسوة والإرهاب التي شنها والده عندصيون : (١٣١٤ — ١٣٤٤) على المسلمين القاطنين في تلك البلاد والأقطار المجاورة ، حتى إنه أغار على صعيد مصر وأطلق سراح بطريرك الإسكندرية الأب مرقس الذي كان قد قبض عليه والى مصر وسجنه لامتناعه عن دفع الجزية . فنحن نرى من هـذا أن النزاع بين الحاميين والساميين انتقل إلى مصر بعد أن كاد يكون قاصراً على الجزيرة العربية والقارة الأسيوية . ولعل من الأسباب القوية التي نقلت هذا النزاع إلى قارتنا وخاصة إلى وادي النيل — إلى جانب الخلافات الجنسية والدينية — العوامل الاقتصادية ، وقد أشار إليها مؤلف السيرة وعبر عنها تعبيراً لا يقل طرافة عن أحاديث الإخصائيين من رجال وزارة الأشغال ؛ فقد ذكر في الصحيفة التاسعة عشرة من الجزء الأول طبع القاهرة سنة ١٣١٠ هـ ما نصه : واعلم يا ملك الزمان أن هؤلاء الحبشة والسودان لابد أن تنفذ فيهم دعوة نوح عليه السلام ، لأنه مجاب الدعوة بين الأنام ، ولا شك في ذلك ، وأنهم يخافون على مجرى النيل من نزوله إلى الأرض الوطيئة خوفاً أن ينزل إلى مصر فهم جاعلونه على قدر أرضهم ، وإذا فاض يجعلون له تصاريف ينصرف فيها إلى الربع الخراب ، وأنهم لا يعملون عمـلا إلا بإذن الحكماء ؛ وهذا هو الصحيح والأمر الرجيح ، وما زال الوزير يقرب يتحدث مع الملك في مجرى النيل ووادي الأمصار وفي شأن الحبش . ويتفق المقريزي مع مؤرخي الحبشة على أن خصومات قوية قامت بين سيف أرعد وبين المسلمين ، وأن هذه الخصومات كانت سيئة جداً حتى أن مصر اضطرت إلى التدخل لوقف هذا العدوان ، وكان تدخل مصر هذا إلى جانب الأسباب الأخرى من العوامل التي جعلت الأمتين في سلام حيناً وعداء حيناً آخر . كما أن شخصية سيف أرعد أصبحت بغيضة إلى مسلمي مصر ، وموضعاً للقصص والسخرية وكتابة هذه السيرة التي يرجح أنها وضعت عقب وفاة سيف أرعد ، أعني حوالي نهاية القرن الرابع عشر أو أوائل القرن الخامس عشر .

في تلك الفترة ألفت السيرة ، ومصر هي وطنها . وذلك ما يلمسه القارئ فيها ، فمؤلفها خبير بمصر وجغرافيتها ، لغتها وعاداتها ، فهو يذكر لنا كثيراً من بلادها وشوارعها ؛ وقد جاء في السيرة ذكر أسوان وإسنا وأخميم وأسيوط ومنفلوط وملوي وإهناس وحلوان والجيزة ومصر ، وحارة بير الوطاويط وقلعة الجبل والروضة وبولاق ، كما ذكرت كثيراً من مدن الوجه البحري كدمنهور وفوة وطرمكور والإسكندرية ورشيد ودمياط ومنوف . أما لغة المؤلف فغنية جداً بالتعبيرات المصرية بالرغم من محاولته إلباسها الثوب العربي الفصيح ؛ ونحن نذكر هنا على سبيل المثال (عنى دعيه) و (وجه قدر الصينية) و (يا نور عيني) .

والآن قبل أن نختم حديثنا عن هذه السيرة نحب أن نشير إلى ملاحظة هامة لاحظناها عند دراستنا لها ، وهي أنها لم تصلنا كما وضعها مؤلفها ؛ بل ألحقت عليها مع مر العصور بعض النصوص التي تتعارض والأغراض الرئيسية التي رمى إليها المؤلف ؛ وإلا فكيف نفهم أن سيف بن ذي يزن هو زعيم العنصر السامي وأنه سامي لغة وجنساً ويتحدر من نسل حام ؟! كما جاء في الصحيفة السابعة والخمسين من الجزء الثامن من السيرة : وهو سيف ابن ذي يزن بن أسد البيداء بن حسان التبعي اليمان بن مهلول بن ماهيل بن أرجوان بن يحرون بن جندح بن حمير ابن هاني بن صروق بن شروان بن حمير بن عفيف بن كوش ابن حام أخو سام بن نوح !

دكتور فؤاد حسنين

٢ - السجون فى مصر

فى العصور الوسطى

وقد ورثت القاهرة المملوكية هذه السجون الثلاثة ، وبقى كلٌّ منها على مأموريته حتى أمر السلطان الملك قلاون الألفى بهدم حبس المعونة ، ويقال فى صدد ذلك أنه لما أصبح قلاون من جملة الأمراء الظاهرية بيبرس ، صار يمرّ من داره إلى قلعة الجبل على حبس المعونة هذا ، فيشمّ منه رائحة رديئة ، ويسمع منه صراخ المسجونين وشكواهم الجوع والعرى والقمل ، فجعل على نفسه إنْ استقامت له السلطنة أن يبنى هذا الحبس مكانا حسنا ، فلما آلت إليه سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) هدمه وبنى موضعه سوقا أسكنه بيّاعى العنبر (الكارم) الذى تعمل منه قلائد النساء والمسابح ، وسماه سوق العنبريين ؛ وكان ذلك سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) . وقد ظل هذا السوق مشهورا بتجارته حتى تلاشى أمره ، وحلت محله [illegible] الدكاكين التابعة لوكالة يعقوب بك بالتربيعة الحالية ؛ كما تقدمت به الإشارة هنا .

غير أنه لم يكد السلطان قلاون ينتهى من هدم حبس المعونة حتى ابتدأ فى بناء سجن جديد سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) ، وهو الجب بقلعة الجبل ، بالجهة الشرقية من الحوش الحالى منها[1] ، حيث توجد الآن ثكنات الجيش المصرى . وقد خصص الجب هذا لسجن الذين يقضى السلطان نفسه – فيما يظهر – بسجنهم من أمراء المماليك ، وكان سجنا مهولا مظلما كريه الرائحة ، تسكنه الوطاويط ، ويقاسى المسجونون فيه ما هو كالموت أو أشد منه . وإذاً فقد عدت القاهرة المملوكية تحتوى على ثلاثة سجون مرة أخرى ، ما عدا أن منها اثنين سياسيين ، وهما خزانة البنود والجب ، وواحداً للذين تجب عليهم عقوبة الإعدام ، وهو خزانة شمائل . وليس معنى ذلك عقلا أنه لم يعد هناك سجن لأرباب الجرائم العادية ، أو أن أولئك صاروا قلة لا تستحق سجنا خاصا ، بل معناه – أكبر الظن – أن تلك السجون وغيرها من السجون فى مصر فى العصور الوسطى لم تخصص تخصيصا دقيقا بحسب أصناف المجرمين ، وأنه كان من المعتاد أن يحتوى السجن الواحد على المجرم العادى ، من سارق وباغ ومعتدٍ أثيم ، إلى جانب السياسى الخارج بمبادئه أو أطماعه الجامحة عن طاعة السلطان ، أو أنه كان بالقاهرة المملوكية فوق سجونها الثلاثة سجن رابع فعلا ، لأرباب الجرائم العادية مثل سجن الديلم ، وهو السجن الذى أورده المقريزى فى فصله مجردا من شرح أو وصف أو تعريف بأصل أو تكوين .

ثم عادت سجون القاهرة قلة واضحة زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون ، إذ رُدِم سجن الجب بأمره بناء على إشارة الأمير بكتمر الساقى سنة ٧٢٩هـ(١٣٢٨م) ، وعُمّرت موضعه طباق (ثكنات من دور واحد) لمئات المماليك ، ونقلت محابيسه إلى بعض أبراج القلعة . وقد فعل السلطان ما يشبه ذلك بسجن خزانة البنود ، إذ أبطل السجن به وحوّله إلى منازل للأسرى من الفرنج وغيرهم ، يقيمون فيها بأولادهم وأهاليهم . غير أنه يظهر أن أولئك الأسرى قد أساءوا استعمال تلك المنازل — على حد قول المقريزى — إذ تجاهروا فيها ببيع الخمور وشربها ، واشتغلوا بحماية من يدخل إليهم من أرباب الديون والجرائم ، حتى ضجّ بهم الجيران ، ومنهم الأمير الحاج آل ملك الجوكندار ؛ فلما صارت نيابة السلطنة إلى ذلك الأمير سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) ، فى عهد السلطان إسماعيل بن الناصر محمد ، كان أول ما بدأ به أن هدم خزانة البنود هدما

(١) هذا التحديد منقول من مذكرات خاصة لصاحب العزة محمد رمزى بك ، ومنها أيضا جميع ما بهذا المقال والمقال السابق من تحديد لمواضع السجون بمصر والقاهرة ، وإنى مبادر هنا بشكر صديقى العالم الخبير بالبلاد المصرية وآثارها ، لما عودنى به دائما من معلومات دقيقة يرجع فضلها كله إليه .

تماما ، أي أنه لم يعد بالقاهرة من السجون الكبرى في أواسط القرن الثامن الهجري (أواسط الرابع عشر الميلادي) سوى سجن خزانة شمائل وسجن أبراج القلعة ، هذا للمجرمين الواقعين تحت طائلة القانون العام ، وذلك لأرباب الجرائم السياسية .

ومن بعد تلك القلة الملحوظة في عهد السلطان الناصر ، أخذ عدد السجون يتطور بين زيادة ونقص على قدر الظروف . فاستجد سجن الرحبة ، الذي جعله الأمير جمال الدين يوسف الأستادار بقصر الحجازية المشهور ، وموضعه الأرض التي تشغلها الآن مباني إدارة دمغة المصوغات والموازين والمكاييل ومبنى بيت المال القديم . وكان هذا الأمير قد أصبح ، منذ سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) ، الشخصية الكبرى في عهد السلطان فرج ، واتسعت سلطاته ونفوذه ، وتعددت وظائفه ، « بحيث صار في معنى ما كان فيه الوزير في أيام الخلفاء العباسيين » ، فأقام ذلك السجن وألقى فيه كل من رأى عقوبته أو قتله أو تعذيبه من أعدائه من الأمراء والأعيان ، أي أن سجن الرحبة كان سجنا سياسيا ، أو شبه سياسي على الأقل . على أن وظيفة الأستادارية لم تعمل معها تلك الحقوق القضائية والإدارية من بعد ذلك الأمير فيما يظهر ، بدليل[1] أن سجنه هذا قد أغلق من بعد وفاته سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م) . ولم يمض على ذلك بضع سنوات حتى أغلق سجن آخر ، من أقدم سجون القاهرة ، وهو خزانة شمائل ؛ وقيل بصدد إغلاقه عبارة تشبه في جوهرها ما قيل بصدد السلطان قلاون وحبس المعونة بالقاهرة . وخلاصتها — على كل حال — أن السلطان الملك المؤيد شيخ كان قد حُبس بخزانة شمائل أيام إمارته ، فنذر أن يجعل مكانها جامعاً ومدرسة إذا تيسرت له السلطنة ، ووفى بنذره وفاء تاما في السنة الثالثة من حكمه ، ببناء جامع المؤيد المشهور سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) . على أنه احتاج إلى سجن جديد لأصحاب الجرائم بدل خزانة شمائل ، فبنى لذلك سجن المقشرة قرب باب الفتوح الحالي ، فيما هو الآن قرافة سيدي الساعي ، شرق جامع الحاكم بأمر الله . وقد عُرف سجن المقشرة بتلك التسمية نسبة إلى دار لقشر القمح كانت في موضعه قبل بنائه ، غير أنه سرعان ما بطل استخدامه لسجن أرباب الجرائم سنة ٨٢٠ هـ (١٤١٧ م) ، إذ كثرت الشكوى مما يلاقيه المساجين به من شدة الضيق وكثرة الغم — على حد قول المقريزي — ، فتقرر إغلاقه تلك السنة ، وفتح سجن الرحبة مرة أخرى . ثم تبيّن أن سجن الرحبة لا يصلح — أو لا يسع — ما هنالك من المساجين ، فأعيد استخدام المقشرة مرة ثانية ، وظلت هذه سجنا لأصحاب الجرائم إلى أيام استيلاء العثمانيين على مصر . ومعنى ذلك أن السجون الكبرى بالقاهرة لم تعد اثنين في وقت من الأوقات منذ أيام السلطان الناصر بن قلاون ، ولم تزد على ثلاثة في أي زمن من الأزمنة السابقة لذلك العهد .

بعد من تلك النتيجة الاستقرائية عدد من الحبوس والسجون التي ترد أسماؤها في ثنايا المراجع دون تدليل كاف يستعين به الباحث على إدماجها تحت نوع من الأنواع المتقدمة ، مما يرجح تبعيتها لسلطات غير السلطات التي تقع السجون السالفة تحت نظرها ؛ ومن هذه سجن الديلم الذي سبقت الإشارة إليه ، وموضعه دار النوبي ودار العارجي وسائر المساكن الواقعة الآن على جانبي زقاق السباعي الخارج من شارع النقادين ، وقد ظلّ مستعملا للسجن حتى أوائل أيام محمد علي الكبير في مصر ؛ ومنها أيضا حبس الحجرة ، وهو خاص بالنساء ، وربما كان تابعا للمحتسب ؛ وكذلك حبس والي الطوف ، وهو سجن مؤقت لمن يقضي هذا الوالي في أمره بصفة مستعجلة حتى يطلع النهار . وهناك أيضا سجن الخزانة السلطانية بالقلعة ، وهو سجن طارئ ، عمله الأمير منطاش لسجن

(١) الدليل المادي على صحة هذه الدعوى تعريف وظيفة الأستادار في ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٦ — ١٠٧ .

حول تقرير معالي وزير المعارف

فتحت الثقافة فى مقال سابق مجال التعليق على التقرير القيم الذى وضعه معالى الوزير حول إصلاح التعليم فى مصر بعد الحرب . ولابد لكل من يعلق على هـذا التقرير أن يبدأ بالثناء على الجهد الظاهر الذى بذله معالى الوزير فى إخراجه ، وأن يشعر بكل الاغتباط لوجود وزراء فى مصر يبحثون أمور وزاراتهم بحثاً علمياً هادئاً بأنفسهم ! فيساهمون بالقضاء على الارتجال الحكومى الذى ابتلانا بهذا الاضطراب الذى نراه فى دوائر الحكومة .

وليس هذا العمل فاتحة لخطة جديدة ينهجها الوزراء فى مصر وحدها ، بل فى البلاد العربية كلها ؛ لأن عيوب الارتجال لا تشكو منها الأداة الحكومية المصرية فحسب ، وإنما تشاركها فى شكواها البلاد العربية كلها ، كما تشاركها فى كثير من الأمور الأخرى ... ولذلك سوف ترى البلاد العربية بأسرها تقدر للوزير هذا الفتح الجديد .

وأريد فى هذا المقال القصير أن أقترح على معالى الوزير أمراً يحول نظرة البلاد العربية إلى تقريره من مجرد التقدير إلى الاستفادة من الإصلاحات التى سوف تجنيها مصر منه . فمعالى الوزير قد حصر بحثه فى إصلاح التعليم فى مصر ، ولم يذكر شيئاً عن التعليم فى البلاد العربية ، ولم يشر إلى أى ناحية من نواحى التعاون التى يمكن أن تنظم بين التعليم فى مصر والبلاد العربية بعد هذه الحرب ؛ ولم يتناول بالبحث مكتب التعاون الثقافى العربى الذى يعلم القوم فى البلاد العربية أنه أسس فى سبيل هذا الغرض .

ولقد أدى به تجنبه الخوض فى هـذا البحث إلى الامتناع عن ذكر رأيه فى أحد الموضوعات القومية التعليمية التى يتطلع إليها العالم العربى بكثير من الاهتمام ، وهو موضوع توحيد برامج التعليم فى البلاد العربية ؛ مع أن هذه الفرصة التى تفكر فيها مصر فى إصلاح نظام تعليمها وتغيير بعض المبادئ التى يقوم عليها هى أنسب الأوقات لبحث هذا الموضوع الخطير .

فهذا الإصلاح الذى شعر الوزير المصرى بالحاجة الماسة التى تدعو إليه فى مصر ، ليقوم التعليم المصرى بعد الحرب فى أسس صالحة ثابتة ، يقابله شعور مماثل فى كل بلد من البلاد العربية . وهذه المبادئ الإنسانية التى يقدمها فى تقريره تصلح لأن تكون أسس الإصلاح المنشود فى مصر وحدها ، قابلة لأن تصير بعد البحث والدرس أسساً للإصلاح فى بقية البلاد العربية .

ولست أعرف ميداناً للتعاون والتوحيد بين مصر

مماليك السلطان برقوق بعد خلعه سنة ٧٩٠هـ (١٣٨٨ م) ، وقد ألغى ذلك السجن عند عودة برقوق إلى السلطنة ؛ وكذلك سجن البحرة بالقلعة ، وكان مخصصا لاعتقال من يخلع من السلاطين ؛ وأخيرا سجن الزردخاناه ، وقد اختار المقريزى أن يصفه بأنه « أرفع السجون قدرا » ، لقصره على أمراء المماليك دون غيرهم فيما يظهر ، وكان الموكل به فضلا عن شؤون وظيفته أمير جاندار . فإذا أراد السلطان تقرير أحد من الأمراء على شىء خطير ، أو أمر بقتله بذنب قبل أن يستفحل أمره ، أرسله إلى ذلك السجن ، حيث لا تطول مدته ، بل يقتل أو يخلى سبيله .

ويضاف إلى تلك القائمة عدد الحبوس والسجون التى كانت للولاة وللقضاة بحواضر الأعمال المصرية ، وهى التى دلت عليها عبارة العنوان فى وضوح . ثم إنه كان ببعض تلك الحواضر ، مثل دمياط والإسكندرية ، سجون سياسية أيضا ، يرسل السلاطين إليها مَنْ تضيق بهم ظلمات سجن القاهرة ، أو مَنْ تقضى المصلحة بإبعادهم عن عاصمة الدولة إبعادا ماديا . وقد اشتملت كبرى الحواضر الشامية ، مثل دمشق وحلب والمرقب ، على عدد من تلك السجون السياسية كذلك ، على أن هذه لا تدخل فى نطاق هذا المقال .

محمد مصطفى زيادة

والبلاد العربية أخصب وأسلم من هـذا الميدان الثقافي التعليمي. ولقد ظهرت بوادره متعددة سنوات، حين أسس مكتب التعـاون الثقافي بين مصر والعراق وأخذ ينظم انتداب الأساتذة المصريين لـمدارس الرافدين. ولـكن التعاون الثقافي بين مصر والبلاد العربية لا ينبغي له أن يقف عند هذا الحد؛ فالحياة الثقافية المشتركة في البلاد العربية، وهذا الاتجاه القومي الذي يدفع بها بقوة إلى الوحدة، يتطلبان عملا أوسع وأعمق من ذلك في ميدان التعاون الثقافي. إنهما يتطلبان مواجهة فكرة توحيد برامج التعليم في البـلاد العربية مواجهة عملية، ترسم الخطة للسير بهذه البلاد نحو برنامج تعليمي واحد للمستقبل القريب أو البعيد.

ولا أستطيع أن أفصل هنا ما أقصد إليه، وما أفهمه من توحيد برامج التعليم في البلاد العربية، فهذا موضوع لدراسات قومية تعليمية طويلة. وإني أغتنم فرصة درس هـذا التقرير الإصلاحي الجديد في مصر لأؤكد أن بين البلاد العربية من التشابه في كثير من المشاكل التعليمية ما يؤهل الإصلاحات المقترحة لأن تصبح إصلاحات عربية لا إصلاحات مصرية فحسب.

وللوصول إلى ذلك أقترح على معالي الوزير أن يدعو وزارات المعارف في البلاد العربية إلى مؤتمر تدرس فيه حالة التعليم فيها، وتعرض حاجاته ومشاكله؛ ويدرس إلى جانب ذلك التقرير، وما فيه من آراء تستطيع البلاد العربية أن تأخذ بها في تعليمها كما تعتزم أن تأخذ بها مصر.

إن من يطلع على التقرير يلمس فيه من التقارير والأبحاث الأمريكية والأوروبية التي استشهد بها الـكاتب، قوة الاتجاه في أمريكا وانجلترا وفي جميع البلدان الديموقراطية إلى التقريب بين مبادئ التعليم فيها، وتوحيدها ما وسعت الظروف والأحوال هذا التوحيد؛ ويرى إلى جانب ذلك رغبة شديدة بين هذه الدول للتعاون تعاونا وثيقا في هذا الميدان التعليمي في نواحيه المعنوية والمـادية، حتى أنها تفكر في تأسيس هيئة دولية تتولى تنفيذ هذا التعاون.

وهذه الروح التي تسود الدوائر التعليمية الأمريكية والأوروبية أحرى بها أن تسود الدوائر التعليمية المصرية والسورية واللبنانية والعراقيـة، وكلها في حقيقة الأمر دوائر أمة واحدة. ولست أدري لماذا سكت معالي الوزير عن هذه الناحية في تقريره.

ولـكن هذا السكوت لا يحول في شيء دون المبادرة إلى العمل السريع. فأرجو معالي الوزير أن يبدأ الخطوة الأولى في هذا الطريق بالدعوة إلى المؤتمر التعليمي العربي الأول؛ هذا المؤتمر الذي يتيح حتما لاستقلال الجهود التعليمية في البلاد العربية عن بعضها، ويسير بها نحو الاتصـال والتوحيد الذي تقضي به القومية العربية المشتركة بينها.

حسين صعب
ليسانس في الآداب
من جامعة فؤاد الأول

أكف النسيان !..

[أكف النسيان كأكف بهسان ، تصافح الحياة ، وتحيلها جنة وارفة بعد جدب وإمحال !

... والنفس الإنسانية كالتربة ، تتقلب بين الخصب والجدب ، وتترع من المسرات كما تكتظ بها ، وتحفل بالآلام حتى ليكاد العقل يجزم بأن بشاشات الحياة قد ولت إلى غير معاد ... ولكن ثمة ما يكفل عودتها .. ثمة ما يكفل جدتها .. ذلك هو النسيان !

وإن أصدق عزاء يقال — إن كانت الكلمات وزن حين تلم الملمات .. أصدق عزاء يقال حينذاك « الزمن كفيل بكل شيء » .

... فهذه الحلقات التي تطوى القرون والأجيال ... حرية بأن تطوى معها أحزان الإنسانية جمعاء !.. حرية بأن تمسح دموعاً ، ما كان يقع في وهم العقل أن ترقأ .

هذه الأكف الناعمة ما تزال تمر برفق ، على وجه غضّنته تصاريف الزمان ، حتى يعود إلى نضرته ، يستقبل الحياة من جديد !]

الكرداني

دعاء ..!

امحجبي أيتها الأكف صورة غاصب الحرية عن المكبّل بالقيد ، وغاصب اللقمة عن الطاوى المكليل ، وسالب القلب عن المحب الولهان !

امحجبي صورة الحبيب الغادر والصديق الخائن .

أيتها الأكف الرحيمة ... هدهدى ذلك الطفل الغرير الذى نكّلت به الأقدار ، على غير ما تأهب منه أو انتظار !

أيتها الأكف الناعمة إنك كالبلسم ، تبدأ أنه صنعة الوهوب ، وأنت نفحة الوهاب !

أيتها الأكف الناعمة .. ما أحوجنى إليك .. ما أحوج كفّى الخضبتين بالدماء ، المتشبثين بالأشواك ، ما أحوجهما إليك .. فصافحيهما .. صافحيهما ، واضغطى عليهما ، واطرحى عنهما الدماء والأشواك !

وأحيلى حياة صاحبهما الجريح غيبوبة تذهله عن حاضره وماضيه !

لقد نفضهما من الحياة ، فما تبق له سوى ذلك الشوك الذى يحزهما ، ويحز قلبه عندما يتحسسه فى وحشات اليأس ، وجلا خائفاً أن تكون دقاته اللاهثة قد سكنت سكون القبر !

... ولكن ما باله يخشى .. ما باله يتخوف أن تسكن دقات قلبه ؟ !

أيخاف الموت ذلك الذى يعاف الحياة !

أيخاف ضجعة القبر ذلك الذى مل الترنح فى لجة القدر !

.. إنه ليخشى المجهول .. ولذا يخشى الموت ، وإن كان يتمناه !

وإنه ليأمل — إن كان حقاً يستطيع أن يأمل — أن تصافحى يديه لينسى ... ينسى إلى الأبد !

•••

امحجبى أيتها الأكف حجباً صفاقاً تسد من عينيه الرؤى المفزعة والرائى الشمة ، وعن أذنيه مسالك الأصوات الراعدة والأصداء الساخرة !

وأحكمى السِتر وكونى رفيقة — كما كنتِ دائماً — فلعله أن يعيش لغده ، ولا يحيا بماضيه ... ماضيه المروع ... ماضيه الدامى !! وأن مسول الذكريات لينفذ فى عنف إلى عقله المتخبّل حتى ليكاد يطيح بما تبق من غراس الأمل الهالكة التى يشق صاحبها ربّها من جديد ! وإنه ليرويها بما تبق له من دماء !

أحكمى السِتر أيتها الأكف الحدبة ، وارفقى بالهارب من ضجة الحياة أن تختلط الرائى بالرؤى فى عينيه ، والأصوات بالأصداء فى أذنيه ، فيلتاث ... ويصيبه الخبال !

عبد العزيز الكرداني

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — شارع الكرداسي رقم ٩ بعابدين — مصر